بخـــارى

للدكتور طه ندا

معنى بخارى :

حاول ياقوت أن يهتدى إلى اشتقاق هذه الكلمة ومعناها فلم يوفق ، وأعلن هذا صراحة حين قال «أما اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم فانى لطالبته فلم أظفر به (١)» . وذكر بارتولد فى دائرة المعارف الاسلامية مادة بخارى أنها من بخر وهى صيغة تركية مغلية للكلمة السنسكريتية «الفهارة» ومعناها صومعة أو دير . وذكر بارتولد أنه كان لليهود بن معبد فى بخارى أو فى مدخل من المدن . أما لغة الزند فتعنى بها بخر بمعنى الحكمة والعلم . ويذكر خوارزمير هذا المعنى ، ويشتق لفظ بخارى فيقول إنها من بخر . ومعنى هذه الكلمة فى لغة الزند مجمع العلم (٢) .

ويدل هذا على أن بخارى لم تكن فى الأصل اسم علم يدل المكان ولكنه صفة . ولا بد أن يكون المجوس فى تلك البقعة قد اختلفوا اليه للعبادة والعلم ومناقشة المسائل الدينية . ويقوى هذا المعنى أن كلمة بهار وهى قريبة من بخر معناها معبد اليهود (بالاضافة إلى معابد الأخرى) . وعلى هذا تتفق التفسيرات جميعا فى أصل معنى الكلمة . وبتطور الأزمنة أهمل الناس اسم المكان الأصلى واكتفوا بصفته . وبقيت لنا بخارى ولم يبق الاسم القديم .

بخارى والفتوح الاسلامية :

معلوماتنا عن بخارى فى عهدها القديم معدومة . وترجع معرفتنا بها إلى ما قبيل الاسلام حين توفى ملكها وجلست على العرش زوجته الملكة

---

(١) معجم البلدان : بخارى .

(٢) حبيب السير : ج ١ مجلد ٣ ص ١٧ طهران .

لأن ابنها كان رضيعاً. وفي أيام هذه الملكة استولى العرب على بخارى. وتسمى المصادر التي بين أيدينا هذه الملكة باسم «خاتون» الا الطبري فانه يسميها «قبيح خاتون»(١) . وهذا يدلنا على أن خاتون لم يكن اسم الملكة ولكنه لقب لها . ولفظة خاتون بمعنى السيدة . ولعل اكتفاءهم بذكر لفظة خاتون يرجع إلى الجهل باسمها .

ومع أننا أيدنا الطبري فيما ذكره خاصاً باسم هذه الملكة الا أننا نخالفه فيما ذهب اليه من أن زوجها الملك كان حياً أثناء الحرب التي دارت بين الترك وعبيد الله بن زياد حين هاجم هذا الأخير بخارى(٢) . وترجع مخالفتنا للطبري في هذه النقطة لأسباب كثيرة منها أنه انفرد بذكرها دون غيره من المصادر . ولأن الحروب بين العرب والترك كانت كثيرة متعددة في عهود مختلفة وتحت راية قادة مختلفين فلم نسمع له — أي لزوجها — ذكراً في حرب منها ولا جرت له واقعة بين الترك والعرب ولا ورد اسمه في حرب أو سلم . هذا فضلا عن أن الطبري الذي انفرد بذكر اسم الملكة لم يستطع أن يذكر لنا اسم ذلك الملك . أما النرشخي فيذكر اسم ذلك الملك وهو بيدون ويصرح بأنه مات قبل استيلاء العرب على بخارى في عهد زوجته الملكة (٣) .

ومع أن العرب غزوا ماوراء النهر في سنة ٤٦ هـ=٦٦٦م على يد القائد ربيع بن الحارث الا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم في فتحه كانت أقدم من ذلك ، فابن الأثير في حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ، وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ فصار منهم وعبر النهر ورغب المسلمون في مطاردته ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب اليه أن يقتصر على ما دون النهر

---

(١) الطبري : حوادث سنة ٥٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) تاريخ بخارا : ص ٨ ط طهران .

ولا يجوزه . ولا شك في أن عمر أراد أن يعفي المسلمين من التوغل في تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب الكثير عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدريج وشجعهم غناها وضعفها على أن يقوموا بغزواتهم التي أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفي سنة ٤٦ هـ = ٦٦٦م أرسل زياد بن أبي سفيان القائد العربي ربيع ابن الحارث من العراق إلى خراسان . وتقدم هذا القائد نحو الشرق منتصراً وتغلب على من لقيه من حكام ايران حتى بلغ في فتوحه مدينة بلخ . ولم تكن هذه الغزوة وما سبقها من الغزوات محددة الأهداف ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة للعرب فقد عرفتهم بإقليم بأسره لم يكن لهم وأغرتهم فيما بعد بإقليم الجيود لفتحه والاستيلاء عليه . وهذا نرى فرقاً بين هذه الغزوات الأولى وما تلاها بعد ذلك من الغزوات من حيث تنظيم الخطة ووضوح الهدف . والمثابرة على بلوغه وتحقيقه .

وفي أواخر سنة ٥٣ هـ = ٦٧٢ م سار عبيد الله بن زياد إلى خراسان وفتح ما اعترضه من بلاد حتى بلغ بخارى . وهناك لقي الترك وهزمهم هزيمة منكرة أوقعت الرعب في قلب خاقان فأسرعت إليه القرار وقد لبست أحذية خضر . وتركت الآخر من فرط ما أصابها من فزع (١) . وقد سبى عبيد الله في تلك الغزوة ثلاثين من مقاتلة البخارية وعاد بهم إلى البصرة حيث أسكنهم هناك . وظلوا بها حتى إلى الحجاج مدينة واسط فنقل كثيراً منهم إليها (٢) وسكة البخارية زيادة معروفة بالبصرة . وما زالت تحتفظ بذكراها وبعد نظر هذا أن لا قبل له بهؤلاء الفاتحين من العرب اضطرت أن تلجأ

---

(١) الطبري : حوادث سنة ٥٤

(٢) فتوح البلدان للبلاذري : ص ٣٨٤ ط مصر ١٩٠١ م .

إلى السياسة فعقدت مع عبيد الله الصلح وطلبت الأمان وتم الصلح ودفعت أموالا طائلة ، وأخذ عبيد الله المال وعاد عنها (١) .

ويصف النرشخي تلك الملكة بصواب الرأى وقوة الشخصية حتى استطاعت أن تستولى على الملك وتخضع الجميع لها . وكانت الخاتون تحيا حياة الأبهة والعظمة فاذا جلست على العرش صطف أمامها الغلمان والسادة ، ولم يكن أحد يجرؤ على الجلوس فى حضرتها . وكان من التقاليد التى رسمتها الخاتون أن يأتى كل يوم لخدمتها مائتا شاب من أبناء الدهاقين والأمراء يتمنطقون بالمناطق الذهبية ويعلقون السيوف فى حمائلها . وكانت مهمة هؤلاء الشبان أن يصطفوا صفين لأداء التحية كلما خرجت الملكة . وكان من عادة تلك الملكة أن تقضى فترة الصباح مباشرة فى تصريف شئون الملك حتى إذا فرغت دخلت القبة وأمرت بمد الموائد . وإذا أقبل المساء خرجت مرة أخرى على تلك الهيئة واعتلت العرش مواصلة تصريف أمور الدولة . وكان الأمراء والدهاقين يصطفون فى حضرتها صفين . وتظل كذلك حتى إذا أقبل الليل عادت إلى القصر فى موكبها . وبعودتها تنتهى خدمة هؤلاء الشبان ويعودون إلى بلادهم ليحل محلهم فى اليوم التالى مجموعة أخرى . وكان هذا الحرس يختار من بين أرقى الأسر شأناً يكون مظهراً من مظاهر التفاف كبار رجال الدولة وأعيانها حول الملكة وخضوعهم لها . وكان هذا الحرس يتغير كل يوم بحيث يحل الدور على كل مجموعة من هؤلاء الشبان أربعة أيام فى السنة . (٢) .

---

(١) لا أدرى على أى مصدر اعتمد فمبرى Vambery فى ذكره عن هذه الواقعة من مهام عبيد الله بن زياد و سجاله فى مرو دون أن يشير فى فصل أشار فيه من كتابه تاريخ بخارى History of Bokhara p. 19 وما بعدها . ويلاحظ أن كتاب لسترنج الذى نشر عن فمبرى نفسه مثل Skrine و Ross فى كتابهما وسط آسيا Heart of Asia لم يأخذ بهذا الكلام وذكرا فى ص ٤٠ أن خراسان لم تتوحد عندما أخذت تتقدم العرب وأنها عقدت مع عبيد الله بن زياد معاهدة دفعت بمقتضاها جزية سنوية للعرب . وهذا واضح فى هزيمتها . وهذه الرواية توافق ما جاء فى المصادر العربية .

(٢) تاريخ بخارا : ص ٩ .

ولما عزل عبيد الله عن امارة خراسان فى سنة ٥٦ هـ = ٦٧٥ م وأصبح سعيد بن عثمان أميراً عبر جيحون واتجه إلى بخارى فأرسلت إليه الخاتون تطلب تجديد الصلح الذى كانت قد عقدته مع سلفه عبيد الله كما أرسلت اليه بعض الأموال والهدايا . وفى أثناء ذلك كانت الجيوش قد تقاطرت عليها من جيرانها حتى بلغ عددها ١٢٠,٠٠٠ مقاتل . وعندما وجدت هذه الجموع تلتف حولها وتؤيدها ندمت على ما أرسلت من هدايا وأموال اعتقاداً منها أنها المنتصرة فى تلك الحرب . ولكن سعيداً أعاد اليها الأموال ثانية ولم يقبل الصلح . ودار القتال وخرجت الخاتون ومن معها منهزمين . وبعد هزيمة الأعداء فى بخارى أراد سعيد أن يواصل سيره إلى سمرقند . ورأى أن يحتاط للأمر ويجنب جيشه خطر الانقضاض عليه فطلب من الخاتون أن تقدم له رهائن توكيداً لحسن نيتها فقدمت اليه ثمانين شخصاً من الأمراء ودهاقنة بخارى الذين كانوا يعادونها ويثيرون فى وجهها المتاعب ، ورحب بهذا الشكل فرصة سانحة للتخلص منهم .

وبعد أن فرغ سعيد من أمر الفتوح فى سمرقند والصغد وعاد مكللا بالظفر طلب منه البخاريون عند عودته إلى خراسان أن يسلمهم الرهائن فلم يفعل وحملهم معه . وكان كلما طولب باعادتهم أرجأ ذلك . ولما أحس هؤلاء الرهائن باليأس من العودة إلى بلادهم هجموا على سعيد فى قصره فقتلوه ثم انتحروا بعد ذلك . وكان ذلك فى خلافة يزيد بن معاوية .

وتولى حكم خراسان بعد سعيد مسلم بن زياد الذى سار شرقاً حتى عبر جيحون . وهنا نجد الملكة تعود إلى الاستنجاد بجيرانها فجاءها منهم جيش كثيف ولم يثن هذا الجيش الضخم العرب عن المضى فى طريقهم ومحاصرة بخارى . وكان المهلب من بين أعوان مسلم فى تلك الحرب . واستطاع الجيش العربى أن يهزم الأتراك وأن يحقق من الغنائم شيئاً عظيما .

وعندما تولى قتيبة بن مسلم أمر خراسان سنة ٨٦ بدأ عهده بخطبة الناس وحثهم على الجهاد لرفع لواء الاسلام، وإذلال العدو، واستفاضة الأموال (١).

وكان الفتح النهائى لهذه المدينة على يدى قتيبه . وقد تم هذا الفتح على أربع مرات إذ المعروف أن قتيبة غزاها أربع مرات تم له بعدها إخضاعها وكان حكم بخارى فى أول أمرها أمراء من الوطنيين (بخار خدات) ؛ الا أن قتيبة رأى أن يضعف شأنهم فعين حاكماً عربياً إلى جانب الأمير البخارى .

ويذكر النرشخي (٢) أن أهالى بخارى كانوا يعتنقون الاسلام فى كل مرة يغزوهم فيها قتيبة ، فاذا رجع عنهم ارتدوا إلى الكفر . وكان قتيبة قد حملهم على اعتناق الاسلام ثلاث مرات وكانوا يرتدون فى كل مرة. ولما استولى قتيبة على بخارى للمرة الرابعة أظهر البخاريون الاسلام بينما كانوا فى الحقيقة يبطنون عبادة الأصنام . ورأى قتيبة تبعا لهذا أن يشترك العرب مع البخاريين فى مساكنهم . فيطلعوا بذلك على حقيقة أحوالهم . وبذلك كانوا من صحة إسلامهم . وبهذه الطريقة أعلن الاسلام وألزم الناس أحكام الشريعة ، وبنى المساجد . وأزال آثار الكفر . وكان يعاقب كل من قصر فى أحكام الشريعة .

ومع أن الاسلام انتشر فى تلك الأنحاء إلا أن سلطان الدولة العربية لم يكن قوياً فيها لأسباب كثيرة لعل أهمها بعد تلك الأصقاع عن عاصمة الخلافة ومراكز الحكم . كذلك لم يكن الحكام العرب يتصرفون دائما تصرفاً سليما فى بعض شئون الادارية . وكان أشرس بن عبد الله السلمى مثلا واحداً من هؤلاء الحكام . وكان سوء تصرفه سبباً فى حركة قامت ضد السيادة العربية وشملت كل ماوراء النهر وكلفت العرب خسائر باهظة ذلك لأنه ذكر فى سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م فى مشروع يؤدى إلى اعتناق

---

(١) الجنبى : حوادث سنة ٨٦

(٢) تاريخ بخارا : ٥٦

أهل ما وراء النهر الاسلام فأوفد وفداً إلى سمرقند ، ووعد برفع الجزية عمن يسلمون فنجح الوفد فى مهمته نجاحاً عظيما لم يكن متوقعاً مما أثر تأثيراً سيئاً فى الايراد الذى كان يجبى . ولهذا عاد أشرس إلى تحصيل الجزية ممن كانت تحصل منهم فكان هذا سبباً لقيام ثورة عنيفة. وثار أهالى الصغد ضد العرب وطلبوا معونة الأتراك . وضاعت أكثر المدن من يد العرب إلا أنهم فى سنة ١١١ هـ = ٧٢٩م استطاعوا أن يستردوا نفوذهم فى بخارى. ومن هؤلاء الحكام أيضا غطريف بن عطا الذى عين أميرا على خراسان فى رمضان سنة ١٨٥ هـ = ٨٠١ م من قبل الخليفة هارون الرشيد ، فجاءه أعيان بخارى يطلبون منه أن يسك لهم نقوداً أسوة بما كانوا يفعلون من قبل إذ كان ملوكهم يضربون الدراهم فى بخارى من الفضة الخالصة . ولما كان صنع النقود من الفضة الخالصة أيام غطريف يكلف كثيراً فضلا عن ندرة الفضة فى ذلك الوقت فقد فكر غطريف أن يسك نقوداً من معادن مختلفة هى الذهب والفضة والرصاص والصفيح والحديد والنحاس . ونسبت تلك العملة إلى غطريف . ويقول لها عامة الناس غدريفية . ولم تعجب هذه العملة أهل بخارى فقد كان لونها مسوداً لم يألفوه فى عملهم من قبل . وكانوا يقومون كل ستة من هذه الدراهم الغطريفية بدرهم واحد من تلك الدراهم الفضية الخالصة . ولهذا السبب ارتفع قدر خراج بخارى لأنه كان يقدر فى أصله على أساس مائتى ألف درهم من الفضة الخالصة(١). وهل هذا الأساس صار دفع الضرائب ؛ الدرهم الفضى الواحد يساوى ستة دراهم غطريفية . ولكن بعد قليل ارتفعت قيمة الدرهم الغطريفى حتى ساوى الفضى . وكان مقتضى

---

(١) يذكر الأب أنستاس الكرملى فى كتابه النقود وعلم النميات ط القاهرة ١٩٣٩ ص ١٥ أن الغطريفى لغة فى القدرفى نسبة الى قدرف ويقال فيها خدرف وقطريف وهى اسم مدينة فى جوار بخارى ذكرها صاحب البرهان قاطع . ونقل عن نولزر فى معجمه قوله "قدرف أو قطريف ضرب من الدراهم كانت معروفة فى مدينة قدرف وهى المدينة التى يسميها العرب قطرف . والواحد منها – أى الدراهم – قدرفى". هذا ما ذكره الأب أنستاس الكرملى . والواضح أن هذه النسبة الى الوالى غطريف كما قلنا . وقد ذكر هذا المؤرخون الذين كانوا قريبى عهد بتلك الحوادث أمثال الترشخى (٢٨٦ – ٣٤٨ هـ) بينما تولى غطريف سنة ١٨٥ . وفضلا عن هذا فالترشخى من أبناء تلك البلاد ومعلوماته عنها يجب أن توضع موضع الاعتبار . وحتى مدينة قدرف التى أشار اليها الأب الكرملى اعتمادا على نولزر لا يبعد أن يكون اسمها مأخوذا من غطريف نفسه .

هذا أن تخفض الضرائب (١) ، لكن هذا لم يحدث ، بل ان قيمة الغطريفي قد زادت فيما بعد فأصبح كل مائة درهم فضي تساوى ٨٥ غطريفياً ثم أصبحت بعد ذلك تساوى سبعين غطريفياً فقط . وفي هذه القصة أكثر من دليل على اضطراب الشئون المالية والادارية في تلك البقاع .

وكان تعصب بعض الخلفاء العباسيين من العوامل القوية في اضعاف سلطة الدولة العباسية في تلك الأقاليم النائية . وكان الخليفة المتوكل مثلا لهذا التعصب . وبلغ من تعصبه ضد الشيعة أنه أمر في سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م بهدم مزار كربلاء وحرم على الناس زيارة ذلك المكان كما أمر فحرثت أرض المزار ، وزرعت فيها الزروع (٢) .

وفي الوقت الذي بدأ فيه العالم الغربي كاسبانيا ومراكش وافريقيا ومصر يخرج من سيطرة الخليفة العباسي كان العالم المشرقي يتجه في نفس الاتجاه .

* * *

وفي السنة التي مات فيها المتوكل ظهر يعقوب الصفار واندفع من سيستان إلى هراة . وبعد ثماني سنوات نجده في سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م قد حاز كرمان وأرسل الهدايا إلى الخليفة المعتز ، وأخذ يوسع دولته حتى ضمت بلخ وطخارستان ونيشابور وجزءاً من صغرستان وزرم هرمز والأهواز .

الدولة السامانية :

لم يرتفع شأن بخارى إلا بقيام الدولة السامانية التي اتخذتها عاصمة لها . وتنسب هذه الدولة إلى سامان خدا أتى أمير سامان وهي قرية من قرى بلخ (٣). وينتمي نسب هؤلاء السامانيين إلى بهرام چوبين (٤) .

---

(١) لأن الدرهم الغطريفي كان يساوى ستين درهم فأصبح يساوى درهما .

(٢) جوامع الحكايات لحوق الورقة ٩٨ والطبري .

(٣) معجم البلدان : مادة سامان .

(٤) بهرام چوبين من الشخصيات البارزة في تاريخ الدولة الساسانية . كان من بين قواد هرمز وطمع في الملك الا أنه قتل في النهاية .

وفى عهد الخليفة المأمون عين أبناء أسد بن سامان حكاماً فى المشرق . فعين نوح حاكماً على سمرقند ، وعين أحمد حاكماً على فرغانة ، ويحيى حاكماً على الشاش ، والياس على هراة .

وكان الفرع المهم الذى تسلسلت منه الأسرة السامانية الحاكمة فى بخارى هو فرع أحمد بن أسد . ويعتبر اسماعيل بن أحمد أول حاكم حقيقى لهذه الأسرة لأنه استطاع أن يقضى على الدولة الصفارية سنة ٢٨٨ هـ = ٩٠٠م ويستولى على خراسان . وقد أقره الخليفة العباسى على ولاية خراسانه وضم اليه ماوراء النهر . وبهذا كانت الدولة السامانية تسيطر على اقليمين رئيسيين أحدهما غربى نهر جيحون وهو خراسان وعاصمته مرو(١) . ولما كان عهد السامانيين أزهى العهود التى عاشتها مدينة بخارى لزم أن نتحدث بشىء من التفصيل عنها فى عهد الدولة السامانية .

موقع بخارى :

تقع بخارى فى اقليم الصغد الخصيب . ويرجع الفضل فى خصوبة هذا الاقليم إلى نهر الصغد المشهور (زرفشان) وما يتفرع عنه من أنهر كثيرة ويفضل هذه الخصوبة امتاز الاقليم بوفرة المحاصيل وكثرة الثمار حتى أنه لم يعد فى حاجة إلى غيره من الأقاليم . ولهذا السبب قلما تعرض لمجاعة أو قحط فعنده دائماً ما يكفى ويفيض (٢) . وتحيط الخضرة المتصلة مدينة بخارى فلا يقع البصر أينما امتد الا على زرع وخضرة .

والمدينة مشهورة بالأنهار والمياه . فنهر الصغد يشقها بفروعه حتى يتخلل الأسواق ويتشعب فى الشوارع(٣) . ويتفرع منه عدد من النهرات تشير اليها فيما بعد .

---

(١) يقال له مرو الشاهجان وهى القصبة . ومن نواحيها مرو الروذ .

(٢) مسالك وممالك : الاصطخرى ص ٢٨٧ – المكتبة الجغرافية العربية ط. دى جويه

(٣) أحسن التقاسيم : المقدسى ص ٣٣١ – ط. دى جويه .

وعندما تتدفق مياه نهر الصغد فى فصل الصيف يفيض على الجانبين مكوناً مستنقعات واسعة فى أطراف المدينة .

ومع وفرة مياهها واحاطتها بالأنهار فان القذارة كانت غالبة على أزقة المدينة الضيقة . وقد أدت وفرة المياه إلى رطوبة الجو ووخامته . ولهذا كره الاقامة فيها كثير من الوافدين عليها . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

أقمنا فى بخارى كارهينـــا ونخرج إن خرجنـــا طائعينا

فأخرجنا إله النـــاس منها فان عدنا فانـــا ظالمونـا

ويقول آخر :

لو انفرس العتيق أتى بخـــارى لصار بطبعه فيها حمارا (١)

سكان بخارى :

وسكان بخارى كما يقول اليعقوبى أخلاط من الناس بين عرب وعجم . وكانت بخارى من أكثر المدن ازدحاماً بسكانها . وبسبب كثافة السكان تلاصقت المساكن والمبانى ، وقل الاهتمام بالنظافة فكانت القذارة والروائح الكريهة منتشرة فى أحيائها وأزقتها . وكانت بيوتها تبنى من الخشب ولهذا تعرضت المدينة الكثير من الحرائق فى أوقات متقاربة . واندس بين أهلها أصحاب المفاسد ودعاة الرذيلة . وهذا أمر طبيعى فى مدينة تجمع أخلاطا من الناس وتزدحم بهم . ولوفرة خيراتها انتشر الترف بين أهلها حتى لبسوا الحرير والديباج وشربوا فى أوانى الذهب والفضة وهونوا أمور الدين (٢) » .

---

(١) اليتيمة : للثعالبى ٤ — ٧١ ط. محى الدين .

(٢) المقدسى : ٣٣٨

علماء بخارى :

ومع هذا فقد كان لأهل العلم والفقه مكانة كبيرة فى المجتمع . ويروى المقدسى أنهم كانوا يرفعون شأن الفقهاء ويستشيرونهم فى شئون الدولة .

وكان الفقهاء والعلماء يمتازون عن غيرهم فى المجتمع البخارى فهم يتمنطقون ولا يتحنكون (١) . وكان لبس الطيلسان وقفاً على الكبراء وحدهم أما عامة الناس فكانت تكتفى بالأقبية المفتوحة .

وكان الأمراء السامانيون يعطون العلماء من تقبيل الأرض بين أيديهم أكثر مما لهم . وكان رئيس العلماء ينتخب من بين فقهاء الحنفية فى بخارى . وكان يلقب "شيخ الاسلام يسمى "أستاذا" أما المعلمون ورجال الدين فيلقبون "ملا" فكانوا يطلقون على الواحد منهم لقب "دانشمند" أى عالم . كذلك كان من بين الوظائف الروحية وظيفة الخطيب . وكانت الخطب تلقى فى المسجد باللغة العربية وكان الملك كانوا يختارون هذه الوظيفة من جيد العربية (٢) .

وقد أخرجت بخارى إلى العالم الاسلامى مجموعة من أئمة المسلمين نذكر منهم على سبيل المثال :

أبو أهل الحديث أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى . ولد فى بخارى سنة ١٩٤ وتوفى بخرتنك من قرى سمرقند سنة ٢٥٦ .

أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور . وكان أبوه من أهل بلخ ثم انتقل إلى بخارى وعين عاملا على قرية بفلا خارجة من قرى بخارى . وفيها ولد أبو على سنة ٣٧٠ وتوفى بهمذان ٤٢٨

ومن قضاتها المشهورين عيسى بن موسى التيمى المعروف بغنجار . سعيد بن خلف البلخى الذى تولى القضاء سنة ٢١٣ وكان يضرب به المثل

---

(١) المقدسى : ٣٢٨

(٢) Barth. Id : Turkestan down to the Mongol Invasion P. 233

فى العدل والانصاف ، أحمد بن ابراهيم البركدى الذى تولى القضاء زمن السلطان أحمد بن اسماعيل السامانى وكان فقيهاً زاهداً، وأبو ذر محمد بن يوسف من جملة أصحاب الامام الشافعى وكان عالماً زاهداً مقدماً على علماء بخارى(١) .

مساجد بخارى :

كان أول مسجد بنى هناك المسجد الجامع الذى بناه قتيبة سنة ٩٤ هـ = سنة ٧١٣م . وقد بنى فى ذلك الموضع مكان سوق كانت تباع فيها الأصنام وعندما أقيم هذا المسجد دعا قتيبة أهل بخارى لصلاة الجمعة فيه كل أسبوع ولكى يغريهم بأداء الصلاة جعل لكل واحد منهم درهمين مكافأة . وقد ذكر النرشخى (٢) أنه رأى مسجد بخارى وعلى أبوابه نقوش وثنية فسأل عن ذلك فعرف أنه كان فى خرج بخارى سبعمائة قصر أقامها أعيان بخارى وكان هؤلاء الأغنياء قد أظهروا العناد ورفضوا أن يعتنقوا الاسلام بينما قبل ذلك الفقراء . وفى أحد أيام الجمعة دعا المسلمون أصحاب تلك القصور إلى الصلاة فرموهم بالحجارة وقامت بين الفريقين منازعة ومناوشة فهجم المسلمون على تلك القصور وانتزعوا أبوابها. وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم، فلما وسع المسلمون مسجدهم استخدموا تلك الأبواب بعد أن كشطوا ما استطاعوا من الصور والنقوش وتركوا الباقى .

ولما ازداد عدد المسلمين وتزايد دخول الناس فى الاسلام لم يتسع لهم الجامع فكان كل حاكم يزيد فيه شيئاً حتى جاء الأمير اسماعيل السامانى واشترى بيوتاً كثيرة وزاد فى الجامع بمقدار الثلث .

ويروى أنه فى أيام الأمير السعيد نصر بن أحمد بن اسماعيل السامانى خر سقف المسجد فوق المصلين ومات فيه خلق كثير . وقد جدد بناؤه بعد ذلك الا أنه تخرب من جديد وتداعت قبته . وفى سنة ٣٠٦ = ٩١٨ أعيد بناؤه مرة أخرى وأضيفت اليه مئذنة على نفقة الوزير أبى عبد الله الجيهانى .

---

(١) تاريخ بخارا : للنرشخى ص ٢

(٢) المصدر السابق : ص ٥٧

ولحداثة عهد البلاد بالاسلام لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم من الكفار فكانوا يخرجون مسلحين . وبقيت هذه العادة إلى عهد الرشخى .

وتتتابع الأيام ويزداد عدد المسلمين حتى يضيق بهم الجامع ويضطروا إلى الصلاة خارجه فى أيام الأعياد على مساحة من الأرض تمتد نصف فرسخ(١). وكان ذلك فى سنة ٣٦٠ فى عهد الأمير منصور .

قصور بخارى

عندما أمر قتيبة بن مسلم البخاريين أن يشركوا معهم العرب فى بيوتهم على نحو ما أشرنا إليه فيما سبق ، رفض فريق من أهلها من أهل الثروة واليسار وفضلوا أن يتركوا بيوتهم للعرب ويبنوا لأنفسهم قصوراً جديدة خارجها . وهؤلاء يقوم هم المعروفون باسم كشكش كشان وكانوا أصلا من الأجانب الذين توطنوا فى المدينة زمناً طويلا . وبلغ عدد القصور التى بنوها لأنفسهم خارج بخارى سبعة قصور . كما بنوا حولها بيوتاً لأتباعهم وخدمهم . ومن هنا نشأت ضاحية جديدة . وكان موضع هذه الضاحية يقال له قصر الحوض كوشك مغان لأنهم صلوا على تلهم عادتهم فيه وتسكنوا . وكان بجانب كل قصر من هذه القصور بستان كبير . ونقش على باب كل قصر صورة المعبود الذى يعبده صاحبه . ولما قام النزاع بينهم وبين المسلمين تنزح هؤلاء أبواب هذه القصور وسقوفها فى بناء مسجد الجامع كما مر من قبل .

ولما استقر السامانيون فى بخارى أعجبت هذه المنطقة قواد الحرس السامانى فأقبلوا على شراء أراضيها حتى ارتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً . ويستنتج بارتولد أن هذه المنطقة كانت تقع فى الشمال الغربى للمدينة (٢) .

---

(١) تاريخ بخارا : ٦١

(٢) تركستان : ١٠٨

وفى عهد الدولة السامانية زاد عدد القصور التى بنيت فى بخارى إذ كان كل واحد من أمراء هذه الدولة يقيم لنفسه قصراً . وكان شاطىء نهر رباح المكان المفضل لبناء هذه القصور بسبب جمال هذه المنطقة . وبلغ عدد القصور ألف قصر بما تضمها من حدائق .

وكانت منطقة القصور القديمة تعرف باسم ريجستان (ريكستان) وفى أيام الأمير نصر بن أحمد السامانى أمر فبنيت له سراى فى الريجستان أنفق عليها أموالا طائلة حتى صارت غاية فى الجمال . وأمر فبنوا بالقرب من سرايه أخرى لدواوين عماله بحيث كان لكل عامل ديوان على حدة على باب سراى السلطان مثل ديوان الوزير ، وديوان المستوفى ، وديوان صاحب الشرط ، وديوان المحتسب ، وديوان الأوقاف ، وديوان القضاء .. وعلى هذا الترتيب بنيت الدواوين (١) .

وبنى الأمير الرشيد عبد الملك بن نوح ٣٤٣ - ٣٥٠ = ٩٥٤ - ٩٦١ م مدرسة ومسجداً بجوار قصره . ولما مات اندفع الظمان فى الليل إلى السراى وأغاروا عليها وأشعلوا النار فيها حتى احترقت كلها . وحين ارتقى الأمير السديد منصور بن نوح ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م . العرش أمر فجددوا عمارة تلك السراى مرة أخرى وجعلوها فى حال أحسن مما كانت عليه وأقام الأمير السديد فيها ولم يكد يمضى عام حتى احترقت مرة أخرى (٢) .

أبواب ودروب بخارى :

منها درب الميدان ويؤدى إلى طريق خراسان ، ودرب ابراهيم ، ودرب الربو ، المردقشة ، كلاباذ . وهذان الدربان الأخيران يؤديان إلى نسف وبلخ ودرب النوبهار ، وسمرقند الذى يفضى إلى طريق سمرقند، ودرب فغاسكون ، الراميثنية ، حد شرون وهو المؤدى إلى طريق خوارزم .

---

(١) تاريخ بخارا : ٣١

(٢) المصدر السابق .

ولها أبواب كثيرة مثل باب الحديد ، باب قنطرة حسان ، ثم بابان عند مسجد ماخ ،باب رخنه ، باب قنطرة السويقة ، باب فارجك . باب دروازجه ، باب سكة مغان (١) .

وعرف من شوارع بخارى وأحيائها : الشارع الجديد ، شارع الصفة ، (المواجه للخانكاه) وحي ريو ،وقصر فارزه قرب باب الميدان ،حي دروازجه . شارع بكار . ومعظم هذه الشوارع كانت تحمل أسماء بوابات المدينة التي تنتهي اليها .

اسواق بخارى :

من أقدم أسواق بخارى السوق المعروفة باسم ماخ . وكانت هذه السوق تقام مرتين كل سنة . ولم تكن اقامتها تمتد أكثر من يوم واحد . وقبضت هذه السوق تقام حتى أيام النرشخي . وكان يباع فيها الأصنام وهي عبدة قديمة منذ أن كان البخاريون من عبدة الأصنام . وكان الناس إذا ضاع صنمهم أو تكسر جاءوا يوم السوق فاشتروا آخر جديداً ، ثم بنى الناس في هذه السوق بيتاً فنار فكانوا إذا قسموا السوق دخلوا المعبد للعبادة . وظل هذا المعبد قائماً حتى الاسلام . ولما قوي أمر الاسلام هدم ذلك المعبد ورفع في مكانه مسجد (٢) . وكان موضع هذه السوق في الحي الجنوبي الشرقي من المدينة . ولذا سمي المسجد باسم سوق أي مسجد ماخ . وكانت تجارة الأصنام في العهد الوثني تدر على أصحاب هذه التجارة دخلا كبيراً (٣) . أما في العهد الاسلامي فقد ظلت السوق بعد أن اختفت الأصنام منها وعرفت المنطقة بحي جامع ماخ .

---

(١) الأصطخري : ٢٩٣

(٢) تاريخ بخارا : ٢٥

(٣) تركستان بارتولد : ١٠٧

قرى بخارى :

يذكر النرشخي من قرى بخارى (١):

كرمينه : وكان بينها وبين بخارى أربعة عشر فرسخاً . وكان من بين أهلها كثير من الأدباء والشعراء .

نور : وهى قرية كبيرة بها مسجد جامع وكثير من الرباطات وهى فى الشمال الشرقى من بخارى . وكان بها مقابر كثير من الصالحين . ولهذا كان يحج اليها كل سنة عدد كبير من أهل بخارى . وللقرية أهمية حربية لوقوعها على الحدود بين المنطقة المزروعة والقاحلة وكانت تستخدم حصناً فى القتال ويسمون نور هذه فى الولايات الأخرى نور بخارى .

طواويس : (يذكرها النرشخي طوايس) وكان أهلها من ذوى النعمة والثراء ، وكان كل واحد منهم يقتنى فى بيته طاووساً أو أكثر . ولم يكونوا قد رأوا طواويس بهذه الكثرة ولهذا سموا القرية ذات الطواويس ، وضاع اسمها الأصلى — وكان أرقود — ثم تخلصوا بعد ذلك من لفظة ذات وصار اسمها طواويس . وكان لهذه البلدة سوق عظيمة يؤمها كل سنة عشرة آلاف من التجار وأصحاب الأعمال من البلاد المجاورة .

اسكجكت : وكانت تشتهر بصناعة الأقمشة . ويقول السمعانى إنها قرية على أربعة فراسخ من بخارى على طريق سمرقند ويقال للمنسوب اليها سكجكتى . وكانت سوق هذه القرية تقام كل خميس .

زندنه : وهى ذات أسواق كثيرة . ومسجد جامع . وقلعة كبيرة . وكل ما يصدر منها يقال له زندنيجى . وفيها تصنع أجود الأقمشة من القيل والكتان .

وردانة : قرية كبيرة أقدم من بخارى . وتقع حدودها عند التركستان .

---

(١) تاريخ بخارا : ١٢

أفشنة : وفيها بنى قتيبة مسجداً كما بنى فيها محمد بن واسع مسجداً آخر يهتم أهالى بخارى بزيارته والتبرك به . وضياع هذه القرية وقف على طلبة العلم . وتقع على بعد فرسخ من بخارى .

بركد : قرية قديمة كبيرة ولها قلعة عظيمة .

رامين : وهى أقدم من بخارى ولها قلعة كبيرة . وتعتبر قرية حصينة وكانت قديماً مقراً للملوك . وبعدها نشأت بخارى . وفى بعض الكتب يطلقون على تلك القرية بخارى . وهى أدفأ جواً فى الشتاء من بخارى .

ورخشه : وهى الأخرى أقدم من بخارى . وكانت مقر الملوك ولها قلعة حصينة وكان لها ربض مثل ربض مدينة بخارى . وهذه القرية اثنا عشر نهراً . وفيها قصر كان قد بناه خلر خدات . وفى الاسلام نقل الأمير السامانى أحمد بن نوح بن نصر السامانى أخشيد هذا القصر إلى مدينة واستعملها فى عمارة القصر الذى كان له على باب قلعة بخارى . وكانت سوق هذه القرية تقام كل خمسة عشر يوماً . أما السوق الأخيرة فى السنة فكانت تمتد عشرين يوماً . وفى يوم الحادى وعشرين يقع النوروز فيحتفلون به هناك ويسمونه نوروز الملاحين .

بيكند : ويبدو أنها كانت أعظم ضواحى بخارى شأناً حتى أن أهلها كانوا يأبون أن تسمى مدينتهم قرية . ويذكر النرشخى أنه إذا ذهب أحد من أهلها إلى بغداد وسألوه من أين أنت لم يقل من بيكند وإنما يقول من بخارى . وبها مسجد جامع كبير ورباطات كثيرة وميان محلة . وكان أهل بيكند تجاراً على درجة عظيمة من الثراء . وكانت بيكند على ربوة غير مرتفعة .

هذا وقد ذكر النرشخى مجموعة أخرى من القرى فى مواضع متفرقة من كتابه أمثال نسوانه ، سكاتين ، سمتين ، سامدون ، نرشخ .. الخ . ويضيف المقدسى عدداً آخر من هذه القرى مثل خجادى ، مغكان .. الخ (١)

---

(١) المقدسى : ٢٨٠

مصنوعات بخارى :

اشتهرت بخارى بصناعة السجاد والأقمشة القطنية والصوفية . وكان بها مصنع مشهور تعطل فيما بعد وتفرق عماله . وكان الأهالى والتجار يفدون من كل مكان إلى بخارى ليشتروا هذه المنسوجات . وقد راجت هذه الأقمشة رواجاً كبيراً بين الناس على اختلاف طبقاتهم . واشتهرت مدينة بخارى بكثرة تجارها حتى سميت مدينة التجار . ومن قرى بخارى زندنة التى مر ذكرها وتشتهر بصناعة أجود الأقمشة من القيل والكتان . ويقال لهذه الملابس زندنيجية ويصدر منها إلى جميع بلاد العالم الاسلامى . وعرف عن أهل بيكند وهى من ضواحى بخارى أنهم من التجار الأثرياء .

تخطيط بخارى :

كانت المدينة فى عهد السامانيين عاصمة الدولة . ومن كتب الجغرافيين العرب يتضح أن المدينة كانت فى ذلك الوقت تنقسم أقساماً ثلاثة :

١ — القلعة (قهندز) .

٢ — المدينة (شهر ستان) .

٣ — الربض .

أما القلعة فقد بنيت خارج المدينة وإن تكن مجاورة لها . واختيرت مرتفع من الأرض بحيث يصعب وصول المياه اليها . وللقلعة بابان أحدهما شرقى يواجه المسجد الجامع الذى بناه قتيبة بن مسلم سنة ٩٤ هـ = ٧١٢م ولهذا يسمى باب الجامع . والآخر غربى يقابل المدينة ويسمى باب الزجستان (بالخاء الفارسية) وهو المفضى إلى الأرض المنبسطة التى تقع فى مدخل المدينة . وكان بين هذين البابين الشرقى والغربى طريق يصل بينهما . وفى داخل القلعة أقيم القصر الذى كان يتخذه الحكام السامانيون مقراً لهم . ولعلهم أرادوا بهذا أن يكونوا فى منعة إذا أغير عليهم . وكانت هذه القلعة تجدد كلما تهدمت حتى قوضها

نهائياً جنكيزخان فى ٦١٧هـ = ١٢٢٠م . وفى هذه القلعة بنيت دواوين الحكومة ومساكن رجال الدولة والجيش لتكون أجهزة الدولة قريبة من الأمير .

أما المدينة نفسها فكان لها سبعة أبواب هى :

١ – بوابة السوق ويسميها الاصطخرى بوابة الحديد وقد سميت فيما بعد بوابة العطارين .

٢ – باب المدينة .

٣ – باب بنى صعد .

٤ – باب بنى أسد وكان يسمى فى العهد الاسلامى باب مهر .

٥ – باب القلعة .

٦ – باب طريق الحق .

٧ – الباب الحديد (١) .

وكان يحيط بالمدينة ويجمع قرى السهل فيضم يسمى سور المدينة أو السور القديم وكان هذا السور أحد عشر

١ – باب الحديد .

٢ – باب جسر حسن .

٣ ، ٤ – باب جامع ماج وباب [illegible] .

٥ – باب رخة .

٦ – باب قصر أبى هشام .

٧ – باب جسر السويقة .

٨ – باب فرجث .

---

(١) بارتولد : ١٠١

٩ — باب دروازجه .

١٠— باب طريق المجوس (مكه مغان) .

١١— باب سمرقند (١) .

وكان بناء هذا السور فى أيام وإلى خراسان أبى العباس فضل بن سليمان الطوسى . وقد شكا له أهل بخارى مايعانونه من هجوم كفار الترك عليهم واغاراتهم المفاجئة على القرى وايذائهم المسلمين . فكلف أبو العباس الطوسى حاكم بخارى ببناء ذلك الحائط ليحمى المدينة وقراها . وجعل على السور فى كل نصف ميل برجاً حصيناً . وقد تم بناء هذا السور سنة ٢١٥ هـ=٨٣٠م وكان كل حاكم يزيد فى هذا السور . ويفرض على أهل بخارى كل سنة من الأموال ما يلزم للمحافظة على السور . وظل الأمر كذلك حتى جاء سعد بن سليمان فأعفى الناس من دفع هذه الأموال وكتب يقول « لا انفق على السور قائلا « طالما كنت حياً فأنا سور بخارى »(٢) . وكذلك الأمر فعلا على ماذكر ولم يقترب منها الأعداء .

وكانت المدينة تتألف فى أول أمرها من هذين القسمين اللذين وصفناهما ضاحية أو ربض خارج هذا السور . وبنوا لهذا الربض سوراً جديداً فى سنة ٢٣٥ هـ = ٨٤٩ م . وأقاموا فيه الأبراج وجعلوا له ... وكان لهذا السور الجديد أو سور الربض أحد عشر باباً أثبتها هى

١ — باب نوبهار .

٢ — باب كلاباذ .

٣ باب المردقشه .

٤ باب نريو .

(١) الأصطخرى : ٢٩٣

(٢) نرشخى : ٤٠

٥ — باب ابراهيم .

٦ — باب الميدان .

٧ — باب غشج .

٨ — باب حد شرون .

٩ — باب الراميثية .

١٠ — باب فقاسكون .

١١ — باب سمرقند .

وبهذه الصورة خرجت على عهد الدولة السلجوقية ، مكونة من هذه الأجزاء الثلاثة : القلعة ، المدينة بشتى ، وهذا سور يحيط بها ، ثم الربض وله كذلك سوره .

ويمكن أن نرتب كل باب من أبواب السور القديم (سور المدينة) وما يقابله من أبواب السور الجديد (سور الربض) على النحو الآتي :

أبواب سور المدينة	أبواب سور الربض	أسماؤها الحديثة
١ — باب الخشب	يقابل باب الربض	ويسمى الآن باب مزار
٢ — باب شهر حسان	يقابل باب كلاباذ	ويسمى الآن كونه (قرشي)
٣ — باب جامع ملخ	يقابل باب فرغانه والربض	ويسمى الآن ملاخانه (عسكر)
٤ — باب ابن خيه	يقابل باب ابراهيم	ويسمى الآن الشيخ جلال
٥ — باب الحمى أو هشم	يقابل باب الميدان	ويسمى الآن قاكول
٦ — باب جسر سويقة	يقابل باب غشج	ويسمى الآن شيرجيران
٧ — باب حد شرون	يقابل باب حد شرون	ويسمى الآن تلبخ
٨ — باب الراميثية	يقابل باب الراميثية	ويسمى الآن أجلان
٩ — باب طريق الجوزجان	يقابل باب فقاسكون	ويسمى الآن الامام
١٠ — باب سمرقند	يقابل باب سمرقند	ويسمى الآن سمرقند (١)

(١) برتولد : ١٠٣

بلاط بخارى :

لم يكن أمراء السامانيين يسيرون وفق نظام محدد ثابت فى ولاية العرش فتارة يكون الابن خلف أبيه فى الحكم وتارة يخلف الأخ أخاه (١) وكان هذا يتيح لقوى الأغراض والمآرب الشخصية أن يتدخلوا فى الأمر . وكان لرجال البلاط والغلمان أثر كبير فى توجيه الأمور مما جعلها تبلغ حد الفوضى فى بعض الأحيان . وقد استطاع هؤلاء الغلمان أن يقتلوا أحمد بن اسماعيل السامانى ، أبا نصر ، رغم ما عرف عنه من تقوى وحسن السيرة (٢) . كما أن رجال الحرس تآمروا فيما بينهم أيام نصر وأرادوا أن يولوا رئيسهم لولا أن كشف الأمر (٣) .

ولما توفى عبد الملك بن نوح انتهز البعض هذه الفرصة وطلب من ابنعمى الوزير ، الذى كان مناوئاً له ، أن يرفع إلى العرش نصر بن عبد الملك . وفعلا ارتقى نصر العرش ولكن ملكه لم يدم سوى يوم واحد لأن أعضاء الأسرة السامانية ورؤساء الشرط تدخلوا من جديد وصمموا على تولية ابى صالح منصور بن نوح .

وهكذا كان عدم تحديد نظام وراثة الحكم مشجعا للعناصر التى تعمل للحكم شخصيا .

ولم يكن بفوزهم مع هذا أن يتموا بأخذ البيعة للأمير الجديد . وكان ذلك عملا شكليا جدا . ويذكر ابن الأثير أن نصر بن احمد حين قتل أبوه كان طفلا صغيرا وأن بيعته أخذت له نيابة عن عباس احمد بن محمد بن عباس الذى كان يرى أن الحق (٤) له يدل على شكلية هذا العمل أن البيعة

---

(١) من أمثلة ذلك أن نصر بن أحمد خلف أباه أحمد بن اسماعيل ، ونصر ٢ بن أحمد خلف أخاه نوح بن نصر ، ونوح بن نصر خلف أباه منصور بن نوح ٢ ، ومنصور ٢ بن نوح ٢ خلف أخاه عبد الملك بن نوح ٢ ، ومنصور بن نوح وعبد الملك بن نوح ٢

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٣٠١ .

(٣) مسكويه ص ٢٩٠ ط شلمبرجر .

(٤) ابن الأثير حوادث ٣٠١ .

لو كانت جدية يرجع فيها إلى رأى الجمهور ما الخير نصر للامارة ؛ فقد استصغره الناس واستضعفوه .

وحين تولى نصر لقب بالسعيد . وكان من عادة ملوك السامانيين أن يتلقبوا بألقاب مختلفة كالشهيد ، والسعيد ، والحميد ، والسديد ... الخ . ونعت الأمراء بمثل هذه الصفات لم يكن معروفا على هذا النحو فى الحياة الاسلامية قبل العهد العباسى ومن الجائز أن يكون أمراء السامانيين قد قلدوا العباسيين فى هذا الأمر . ولكن المسألة بالنسبة إلى السامانيين والعباسيين معاً لها أصل أبعد . فقد كان الملوك فى عهد الدولة الساسانية — قبل الاسلام — يتلقبون ألقاباً مختلفة مثل عابد مزدك الإلهى ، ملك الملوك ، مهت ملوك ايران ، سليل الآلهة ، رفيق النجوم ، أخى الشمس والقمر !

ولقد كان الأمير نصر بن احمد الساماني هو عنوان مجد هذه الأسرة فسنتخذ من ايلاء أمره موضوعاً للحديث ومثالا لما كان عليه بلاط بقية الأمراء .

شخصيه الأمير

كان نصر لما تولى وهو طفل صغير فلا عبرة إذ رأيناه فى أمر عهده تغلب عليه رغبات طفولية . وقد ذكروا ان جده حين حضره وحرجوه ليتلقى بيعة الناس حتى وضن أنهم يريدون أن يقتلوه كما قتلوا أباه (٢) . وقد يفسر بهذا ما كان يبديه نصر فى الامرة ما يدل على أنه لم يكن يفكر فى الا تقوم بمعيشته لأنه كان يصرفه كثير (٣) ثم تقدمت به الأيام فأحس أنه فى دور الشباب وملأه فركز أنصحه الذى يتولاه غروراً فقد على نفس قسوة شديدة . وكان إذ جانب الصواب فى أمر من الأمور رجع عن غلظة وندم على ما بدر منه . ويذكر ابيهقى أن الأمير نصر عند

(١) Christensen . L'Empire des Sassanides p. 98

(٢) ابن الأثير حوادث ٣٠١

(٣) جوامع الحكايات : الورقة ٢٢٣ و ابن الأثير .

البلعمي – الذى كان وزيره – وعند أبي الطيب المصعبي – الذى كان صاحب ديوان رسائله – علاجاً لهذه الحالة فأشارا عليه أن يتخذ العلماء والعقلاء ، وأن يفسح لهم فى صدره ، وأن يرفع منزلتهم حتى إذا بلغ الغضب بالأمير مبلغه وجدوا فى أنفسهم من الشجاعة والجرأة ما يسمح لهم بالشفاعة لديه لتلطيف الأمر . والتهوين من شأنه ، وتزيين الخير للأمير حتى يهدأ غضبه ويأمر بالعفو . ويعدل عن فعل الشر إلى الخير ، وقد أعجب نصر بهذه الفكرة وقطع على نفسه عهدا الا يوقع أمراً أمر به فى ساعة الغضب قبل انقضاء ثلاثة أيام تكون فى غضبه فيها قد هدأت ويكون رجاله قد بذلوا لديه الشفاعة وأمر فجمعهم له خير من فى الامارة عقلا وحكمة وقضوا فى تعليمهم واختبارهم عاماً حتى اختار عددهم بن ثلاثة قدموهم إلى نصر . ولم تنقض سنة بعد ذلك حتى كان نصر أحلم زمانه يضرب به المثل فى الحلم . (١) وقد رأينا أثر هذا الحلم حين كتب الأمير بالتدريب والتهذيب حين ذكرنا قصة أبي الطيب الصاغرى وبن عصام تبعي معه (٢) . وابن الأثير يضرب لنا مثلا آخر من أناة نصر وطيبة نفسه .

وفى عهد نصر انتشرت دعوة القرامطة حتى استطاعت أن تتسلل إلى بلاطه وينضم عدد كبير من رجال الحاشية إليها . وقد استطاع هؤلاء أن يتبرموا فى نصر الالتزام بهذا المذهب ونجحوا فى تهيئة الفرصة بين الأمير وبين محمد النخشبي الذى كان يقوم بالدعوة . وهذا الموقف من المواقف التى تحمد لنصر فقد كان يستطيع أن يقضى على النخشبي . أو أن يطرده من حضرته . أو ينفيه من البلاد . ولكنه أخذ يناقشه ويجادله فى أمر الدعوة لأن كل واسع الأفق ساع وراء الحقيقة بعيد عن التعصب لرأى أو مذهب خاص وقد انتهى الأمر باقتناع الأمير واعتناقه هذا المذهب . وسيبلغ النخشبي هذا المبلغ من النجاح لم ير داعياً لكتمانها وأعلن الدعوة . ولكن الأمر لم

---

(١) تاريخ بيهقى : نصر غنى وفياض ص ١٠٦ وجوامع الحكايات ولوامع الروايات ورقة ١٢٨

(٢) راجع ص٨٠ من هذا البحث .

ولكن الأتراك الذين يكونون عنصراً مهماً فى بلاط نصر لم ترقهم استجابة نصر لهذه الدعوة ورأوا أنه قد وقع فى ضلال مبين ،وأخذوا يدبرون لأمر فيما بينهم ليحدثوا انقلاباً يبايعون بعده كبير قوادهم . ومن حسن حظ أن وقف نوح بن نصر على ما يدبره هؤلاء الأتراك للدولة فأسرع إلى أبيه وشرح له حقيقة الخبر . وقد تمكن نصر من الاحتيال على المتآمرين إذ استقدم اليه زعيمهم قائد الجيش فقتله ، ووضع رأسه فى كيس ، ثم ذهب مع ابنه نوح إلى مكان المتآمرين الذين بهتوا لدخوله عليهم فجأة ، وأعلن نصر أنه وقف على ما يدبرون وأنه لا يمكن أن ينسى لهم هذه الفعلة طالما كان أميراً للدولة . ولذا رأى الأتراك أنهم وحرصاً على سلامتهم من أذاه أن يتخلى عن الامارة لابنه نوح . وعرض عليهم أن يخلعه نوح فلم يبدوا على ذلك أى اعتراض . وعندئذ أخرج رأس زعيمهم من الكيس وألقاها أمامهم فارتبكوا ولم يجدوا ما يعتذرون به سوى إلصاق التهمة بقائد الجيش الذى نال جزاءه .

وكان تخلى نصر عن الحكم عملا فى غاية الحكمة . وهذا التصرف منه إذا أضيف إلى جملة تصرفاته يدل على أنه كان رجلا يخضع حكمه لعقل فى كل تصرفاته . فهو أنه استمر فى الحكم فإن رجال الجيش بعد أن كشف نواياهم فسده . ولكن خشية أن يسيء هؤلاء استغلال قوتهم قد يجرجهم على نصره أو يضعف ولاءهم نحوه ، وأن مقتل زعيمهم لابد أن يثير حفيظتهم . وعلى العموم كان لابد أن تقع حفوة بينهم ثم لا يستقيم معه أمر بعدها . ولذا كان تخليه عن الحكم عملا حكيما .

وكان أن تولى نوح وأمر بالقضاء على محمد النخشبى وأتباع مذهبه الذين كانوا السبب فيما حدث(١) .

---

(١) سياست نامه ، ١٨٩ .

واعتزل نصر بعد ذلك وقضى بقية حياته فى العبادة حتى أنهكه مرض السل فقضى فى رجب سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م .

جند البلاط :

يمكن أن نميز فى البلاط حياتين بارزتين : الحياة الأولى حياة الجد ، والثانية حياة اللهو .

أما حياة الجد فكانت تتمثل فى ناحيتين :

١ — الناحية الحربية .

٢ — الناحية الديوانية التى تتولى الاشراف على شئون الدولة فى زمن السلم .

ففيما يتعلق بالناحية الحربية لا نريد فى هذا البحث الموجز أن نطيل فى أمر حروب نصر . فهذا موضوعه بحث تاريخى خاص أو مجال آخر يتسع القول فيه للتفصيل . ولكن المهم أن هذه الحروب تطلبت عدداً من الوظائف والموظفين للاشراف عليها وتوجيهها . وكان فى البلاط عدد من هؤلاء الموظفين تتصل أعمالهم اتصالا وثيقاً بشئون الحرب منهم :

حاجب الحجاب : وهذه الوظيفة أكبر وظائف البلاط ولا يصل الموظف اليها الا بعد أن يمر فى مراحل طويلة حتى يصبح جديراً بهذا المنصب الضخم . وتسمى هذه الوظيفة بالفارسية «حاجب بزرك» .

ووظيفة الحاجب عرفها البلاط السامانى من قبل . وكان يقوم فى ذلك العهد بتدبير شئون الحرب كما كان يشترك فيها اشتراكاً فعلياً ، ولا شك فى أن السامانيين كانوا يحاولون تقليد الساسانيين فى كثير من شئون الادارة والدولة .

وهناك وظيفة قائد الجيش «سپهسالاره» وكان قائد الجيش يختار من بين الأشراف وأبناء الأسر العريقة .

وهناك منصب رئيس الحرس . وكان للأمير حرس يتكون من العبيد الذين يشترون لهذا الغرض وخاصة من الأتراك . وكان رئيس الحرس يشترك أيضاً فى الأعمال الحربية كما أنه كان مسئولا أمام الأمير عن تنفيذ الأحكام التى يصدرها من قتل أو ضرب أو حبس . ويذكر نظام الملك أن الحرس الذى يعمل تحت اشراف لرئيس كان يتكون على الأقل من خمسين رجلا (١) . والمفهوم أن الوظيفة الأساسية لهذا الحرس هى حماية الأمير والسهر على سلامته . وقد صار هذا الحرس نفسه مصدر خطر على الأمير كما سنرى ذكره وقد عرف الفرس تقديم هذا النظام .

ووظيفة العارض من الوظائف المتصلة بشئون الحرب . ويذكر نسمعانى فى هذا الاسم أن يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها اليهم ويعرض العسكر على الملك إذا احتاج إلى ذلك (٢) . فكانت هذه الوظيفة ذات شقين : ادارى يتمثل فى معرفة عسكر وحفظ أرزاقهم وأدائها اليهم . وحربى يتمثل فى تنظيم العرض العسكرى أمام الملك . ولم تكن هذه الوظيفة مبتدعة فى هذا العصر ولكنها كانت قديمة فى عهد كسرى أنوشروان الذى كان قد عين لها رجلا معروفاً بالشدة والكفاية يقال له بابك بن شاروان .

وكان هناك بالاضافة إلى هؤلاء رئيس الشرط . ولم يكن عمله متصلا بشئون الحرب الخارجية فيما يبدو لأن مهمته الأساسية كانت تنحصر فى الاشراف على الشرطة المنتسبة من ناحية العسكرية وحفظ الأمن فيها .

* * *

أما الجهة المدنية فيجلها شئون الدولة أيضاً تسلم . وأول الوظائف فى هذا المجال وظيفة الوزير . ويطلق عليه أحياناً السيد الكبير أو خواجه بزرك وكان شعاره المحبرة (٣) .

---

(١) سياست نامه : ١٢٢

(٢) الأنساب . ٣٧٨ ط مارجليوث ١٩١٢

(٣) بارتولد : ٢٢٨

وفى عهد السامانيين تولى الوزارة عدد من الوزراء الذين كانوا أبناء أسرة واحدة كأسرة البلعمى . ويستحسن نظام الملك نظام توارث الوزارة فيذكر أنه من الأفضل وأن يكون الوزير ابن وزيره (١) .

ومن الوزراء الذين اشتهروا فى عهد نصر :

أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وينسب إلى بلدة جيهان على شاطىء جيحون (٢) . ومن حسن حظ الأمير الطفل نصر أن تولى له الوزارة مثل هذا الوزير فى جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م . وبفضله استقامت الأمور .

ويستفاد من المصادر التى ترجمت له أنه كان رجلا واسع العلم ، فاضلا بصيراً بالأمور . مؤلفاً فى كثير من العلوم والفنون . وأحد كتبه التى ألفها يسمى مسالك والممالك (٣) . وذكر ابن النديم عدداً من مؤلفات الجيهانى (٤) والجرديزى (بجانب نصر سية) يذكر أسماء كتب ابن خرداذبة والجيهانى فى قائمة المصادر الرئيسية التى استخدمها فى تأليفه للفصول الخاصة بالأتراك . وكان جيهانى يرعى العلم والعلماء . ولم يسلم جيهانى من هجاء بعض الشعراء الذين حسدوا من وصوله وتقربه منذ مهجده . وكان أبو الطيب الطاهرى من أكثر هجائيه . وسنشير إلى ذلك فيما بعد عند الكلام على الشعر العربى فى خراسان . وينبغى أن نقدر هجاء الطاهرى لجيهانى على أنه كلام شاعر لا يؤثر بحال من الأحوال فى قيمة رجل . فقد أجمع الكتاب والمؤرخون على أن جيهانى كان فاضلا عالماً سديد الرأى والتدبير . ورأى أبى الطيب الطاهرى فيه لا يعد شيئاً إذ قيس إلى هذا الإجماع . ولا يفوتنا أن أبا الطيب كان ذا ضيعة هجاءة ولم ينج من لسانه أحد وقد تطاول على مقام الأمير

---

(١) سياست نامه : ١٥١

(٢) معجم البلدان :

(٣) المقدسى : ٣

(٤) فهرست : ١٣٨ ط ليبزج

نصر نفسه ، وعلى أبيه من قبل ، وعلى دولتهم كلها رغم ما كان من إحسانهم اليه وعفوهم عن اساءاته (١) .

وقد عمر الجيهانى لأنه تولى الوزارة لنصر بن أحمد حين بويع أميراً سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م ثم إننا نجد ذكره فى حوادث سنة ٣٦٧ = ٩٧٧ إذ أنه بعد وفاة منصور بن نوح تولى نوح بن منصور سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م وكان الجيهانى على رأس وزارته فصرفه عنها سنة ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م أى بعد عام من ولايته وأحل محله أبا الحسين عبد الله بن أحمد العتبى (٢) .

والوزير الثانى الذى اشتهر أيام نصر بن أحمد هو البلعمى أبو الفضل محمد بن عبد الله . وهو عربى الأصل إذ ينتهى نسبه كما أورده السمعانى إلى تميم (٣) . وسمى البلعمى بهذا الاسم نسبه إلى بلعم من ديار الروم التى فتحها المسلمون تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك . وقد اشترك مؤسس الأسرة فى هذه الغزوة فنسب إلى المدينة . واشتهر أولاده أيضاً بهذه النسبة وقد ذكر ذكر السمعانى أن أبا الفضل البلعمى وزر لاسماعيل بن أحمد أمير خراسان . وقد سايره القزوينى فى حواشيه على چهار مقاله فى هذا الزعم (٤) . وممن سلم بهذا أيضاً خوندمير فى دستور الوزراء (٥) . وهذا خطأ . ويظهر أن النص الذى أورده ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦١ هـ كان هو السبب الذى ضللهم وأوقعهم فى هذا الخطأ (٦) . فقد جاء فى ابن الأثير «حكى أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمى قال سمعت الأمير أبا ابراهيم اسماعيل ابن أحمد يقول.... ولعل اقتران ذكر أبى الفضل البلعمى مع اسماعيل بن أحمد

---

(١) يتيمة الدهر : ٦٦ – ٤ ط الصاوى

(٢) معجم الأدباء : ١٩٢ – ٤ ط رفاعى

(٣) السمعانى : مادة بلعم

(٤) چهار مقاله : حواشى القزوينى ص ١٠١ الطبعة الى الترجمة العربية للرام والخشاب ط لجنة التأليف والترجمة

(٥) دستور الوزراء : ١٠٨ ط. طهران ١٣١٧

(٦) ابن الأثير : ١٠٠ – ٧ ط. مصر حوادث ٢٦١

أوهمهم أنه كان وزيراً له والواقع أن هذا النص الذى تسمع فيه لأول مرة فى تاريخ السامانيين عن البلعمى ليس فيه ما يؤيد أنه كان وزيراً لاسماعيل وإن أفاد أنه كان معاصراً له . ثم إن أغلب المصادر تجمع فى صراحة على أن البلعمى كان وزيراً فى عصر نصر بن أحمد (٣٠١ — ٣٣١) . ولم نعرف على وجه التحديد متى تولى البلعمى منصب الوزارة لنصر وان كنا نعرف أنه ترك هذا المنصب فى عام ٣٢٦هـ = ٩٣٨م وتوفى فى صفر ٣٢٩= ٣٤٠م.

والبلعمى الكبير هذا ابن هو محمد بن محمد الملقب بأبى على . ويطلق عليه المقدسى «أمير بلعمى» (١) أى البلعمى الصغير — وقد تولى أبو على البلعمى هذا الوزارة فى أواخر عهد عبد الملك بن نوح (٣٤٣ — ٣٥٠ هـ) واستمر قائماً بها فى عهد خلفه أيضاً منصور بن نوح (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ولم يكن البلعمى الابن ذا شخصية قوية كما كان البلعمى الأب .

وقد كانت أسرة البلعمى فى القرن الرابع واحدة من أشهر الأسر التى تميزت بالعلم والأدب فى خراسان .

وهناك : غير الوزير : صاحب البريد . وكانت مهمة صاحب البريد أن يرفع إلى الأمير الأخبار المهمة التى تأتيه من الأقاليم عن سير الحوادث فيها وعن الحكام المحليين . كما كان يتولى نقل الأوامر من العاصمة إلى الأقاليم وكان هذا النظام معروفاً لدى الساسانيين . ويذكر ابن البلخى عن كسرى أنو شروان أنه كان يولى هذه الوظيفة من كان أميناً فاضلا عالماً (٢) .

وهناك المشرف ووظيفته أن يرفع التقارير عما يجرى داخل البلاط إذا كان فى الأمر ما يدعو لذلك (٣) .

---

(١) المقدسى : ٣٣٨

(٢) فارس نامه : ٩٣ ط ليدن وليكلسون ١٩٢١

(٣) بارتولد : ٢٣٠

وكان هناك الوكيل الذى يتولى الاشراف على ديوان الممتلكات الخاصة بالملك ، كما كان يتولى أيضاً الاشراف على نظام الخدمة بالبلاط .

وهناك كاتب السر وهو الكاتب الخاص بالأمير ويسمونه دبير خاص وكانت هذه الوظيفة موجودة عند الساسانيين . ومما كان يروى عن كسرى أنو شروان أنه كان يقول «الكاتب لسان الملك» (١) .

أما المستوفى فهو المسئول عن شئون المال «خزينه دار» . وكان يحاسب من مرؤسيه . أما ديوان عميد الملك فيشبه ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء . ورئيس هذا الديوان يلقب بخواجه عميد .

وكان عمل محتسب صيانة النظام فى الشوارع والأسواق ومراقبة حركة البيع والشراء ومراقبة الذين يتهربون من دفع الضرائب .

وكان على رأس نظام القضائى قاضى القضاة وهذه الوظيفة تشبه وظيفة كبير رجال الدين فى العهد الساسانى موبدموبدان .

وفى الأقليم حدث نفس التصنيع والادارات كما هى فى العاصمة . وكان الحكام الاقليميون يسمون حكاماً أو كتخدا .

وكان هناك أيضاً نظام للجمارك . وكانت جمارك تحصل عند عبور نهر جيحون وكانت تحصل على الأشخاص والأمتعة . وكانت بعض المدن التى تدخل خراجها تحصل عليها ضرائب جمركية . وكذلك كانت الحال بالنسبة للرقيق وكان هناك الذين كانوا يعفون من أداء الضرائب الشرعية .

وكانت الحكومة إذا نزلت بها ضائقة مالية رفعت الضرائب أو فرضت ضرائب جديدة أو أخرت دفع أجور الموظفين . وكان اتخاذ مثل هذه الاجراءات يثير تذمر الناس .

---

(١) بارتولد : ٢٣٠

وكان لكل مدينة رئيس . ولم تكن وظيفة رئيس المدينة وظيفة وراثية تنتقل من الأب إلى الابن . وكان رئيس المدينة الشخصية الادارية الرئيسية فيها وبواسطته كان الأهالى يعلمون أوامر الملك ورغباته . وكان صاحب هذه الوظيفة يعين فى أول الأمر من بين أفراد الأسر المحلية الكبيرة .

ومن الدواوين التى عرفت فى عهد نصر : ديوان الوزير ، ديوان المستوفى ، ديوان عميد الملك ، وديوان صاحب الشرطه . ديوان صاحب البريد ، ديوان المشرف . ديوان الأملاك الخاصة ، ديوان المحتسب ، ديوان الأوقاف ، ديوان القاضى .

العلماء فى البلاط :

اشتهر أمراء الدولة السامانية بتشجيع العلم وحب أهله ، حتى ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦١ أن اسماعيل «كان خيرًا يحب أهل العلم والدين ويكرمهم ويبرهم دام ملكه ومنك أولاده وطالت أيامهم» .

وكان من علامات التكريم لمن نال القبول والرضا من أهل العلم أن يدعى إلى مائدة الأمير الخاصة التى تقام له فى دار الحريم .

وينبغى أن نذكر للدلالة على مدى التكريم هنا أنه لم يكن يسمح لأحد من الرجال بالدخول اليها حتى أن الخدمة فيها كانت مقصورة على الجوارى .

وكان المؤلفون يدخلون على الأمير ومعهم مؤلفاتهم ليجيزهم . وكان الشعراء ينشدون على الأمير فى الأعياد فينشدونه أشعارهم . وكان أمراء السامانيين يعدون رجال العلم من تقبيل الأرض بين أيديهم إجلالا لهم وتعظيما . ويدل هذا على شيوع عادة تقبيل الأرض بين يدى الأمير فى البلاط السامانى . وهذه عادة ساسانية قديمة .

لهو البلاط :

كان للهو الأمير ورجال البلاط مظاهر مختلفة منها الضرب بالصوالجة (بازى چوكان) . وكان اللاعب يركب فرساً ومعه عصا طويلة معوجه من أحد طرفيها لضرب الكرة . وهى أشبه بلعبة البولو فى الوقت الحاضر . وقد عرف عن الأمير نصر ميله إلى هذه اللعبة . وكثيراً ما كان يصحب معه الشعراء عند خروجه لممارستها ولم تكن هذه اللعبة جديدة فى البلاط السامانى إذ عرفها السامانيون من قبل وكانت شائعة عندهم (١) .

والصيد أيضاً رياضة ملكية محببة . وقد أولع به ملوك الفرس من أقدم العصور وكان يعد أكثر أنواع اللهو لياقة بالملوك . وكانوا يهتمون بصيد الحمر التى كانت تدرب فى بعض الأحيان وتستخدم فى بعض الشئون . من ذلك أن أحمد بن اسماعيل السامانى أبا نصر كان إذا خرج للصيد ربط على باب خيمته أثناء الليل أسداً لحراسة فلا يقدر أحد أن يقترب من المكان(٢)

أما الغناء فقد كان أرقى أنواع اللهو فى البلاط . وكان على رأس المغنين فى بلاط السامانى أبو نصر بن أحمد الشاعر الرودكى . وكان الأمير شديد التأثر بما يسمعه من مغنيه وشعرائه . ورودكى . وقد عرف رجال حاشيته فيه هذا و ستغلوه لمصلحتهم حين أرادوا العودة من هراة إلى بخارى . وكان الأمير قد أعجبته هراة حتى أقام فيها أربع سنوات مما بعث الملل فى نفس جنوده و بلغ وهيج فى قلوبهم شوق و حنين إلى أهليهم فى بخارى . ولم يجدوا وسيلة يثيرون بها شوق الأمير إلى بخارى ويغرونه بالعودة اليها خيراً من شعر الرودكى وأغانيه . فعرضوا أن يدفعوا للرودكى خمسة آلاف دينار إذا هو غنى حثاً يثير الأمير ويغريه بالعودة . وقبل الرودكى ما عرضوه وألف قصيدة هذه المناسبة وغنيها . فلما كان وقت الصبوح دخل على الأمير وأنشده القصيدة .

---

(١) سايكس : تاريخ ايران ٦٤١ ـ ١ الترجمة الفارسية ط. طهران .

(٢) ابن الأثير : ٢٧ ـ ٨ حوادث سنة ٣٠١

فتأثر الأمير بمعانيها أشد التأثر واضطرمت فى نفسه نيران الشوق إلى بخارى فنزل من فوره عن عرشه وركب فرسه وأسرع عائداً إلى بخارى . ويذكر نظامى العروضى أن الأمير أعجله الشوق إلى بخارى حتى نسى أن يلبس حذاءه فحمل اليه بعد فرسخين (١) . وهذه القصة ملخصة عن الأصل الذى ورد فى چهار مقالة . ومن النص الأصلى نلاحظ أن نصراً كانت تعقد له مجالس الغناء فى الصباح كما كانت تعقد فى الليل ، وأن مجلس الغناء لم يكن يقتصر على مغن واحد يستمع اليه الأمير بل كان فيه مغنون كثيرون يغنى كل منهم فى دوره ، وأن المغنين كان لهم نظام خاص فى الجلوس وترتيب معين .

وكان العود آلة الموسيقى الرئيسية فى مجالس الغناء . ويحدثنا الرودكى فى بعض أشعاره عن العود أو البربد فيذكر أن صوته أحسن من التكبير (٢) .

وهو يذكر عن العود أنه ينفذ السهام فى القلوب لحسن ايقاعه وعذب نغماته (٣) . وكان فى كل وقت لهم مجالس غناء . لم يكن الغناء أو الشراب ينقطع ليلا أو نهاراً (٤) . وقد تبلغ روعة الأنغام التى تصدر عن العود غاية بعيدة فترد حلاوتها وشدة تأثيرها المجنون إلى العقل كما قد تخرج العاقل عن عقله (٥) .

أما مجلس الشراب فنرى صورة له فى بعض خمريات الرودكى . كان المجلس يزين بالورود والرياحين ، وكانوا يلبسون له الملابس الجديدة ، والألوان الزاهية ويصفون فيه الأرائك صفاً . كما كانوا يدخلون على المجلس عناصر أخرى للطرب والتسلية ، فكانوا يعزفون الموسيقى ، ويغنون ، وينشدون الشعر . وكان الأمير يتصدر المجلس ، ويصطف الغلمان الأتراك حوله كالأقمار فى حالهم وقد توجوا رءوسهم بتيجان الآس . وأشرقت وجوههم

---

(١) چهار مقالة ، ٢٩ ط. طهران

(٢) دوستا آن خروش بربط تو — خوشتر آيد بگوشم از تكبير

(٣) تن أو تير نه زمان بزمان — بدل اندر همى گزارد تير

(٤) گاه گريان وگه بناله زار — بامداذان وروز تا شبگير

(٥) گاه ديوانه راگند هشيار — گه بهشيار بر نهد زنجير

وانتشرت فى الجو الروائح الذكية التى تعطروا بها . وكان يدير الأقداح عليهم فى هذا المجلس فتى جميل من غلمان الأتراك ، ملائكى الوجه ، أسود العينين ، ممشوق القامة كالسرو ، مثنى خصلات الشعر كعصا صولجان .

ويؤدى بنا الحديث عن الغناء والشراب إلى ذكر النديم . وكما كان النديم سميرا للأمير فى مجالس لهوه وطربه كان كذلك مشيراً له وناصحاً فى المهم من الأمور بحكم قربه منه وصلته الوثيقة به . ويبين نظام الملك مهمة النديم فيذكر أنه كان أنيساً للأمير ، رفيقاً له بالليل والنهار ، مفدياً له بروحه إن تعرض الأمير للخطر متحدثاً اليه فى شتى الموضوعات التى تتصل بالعمال ، ناصحاً للأمير مبيناً له مواطن الخير والشر (١) . وكان يشترط فى النديم أن يكون من أهل الفضل والسمعة الحسنة والوجه المشرق ، حافظاً للسر ، مسامراً ، قاصاً فى ألوان الجد والهزل ، ملماً بكثير من أسباب التسلية والترفيه كالنرد والشطرنج والعزف على آلات الموسيقى . ومما كان يشترط فيه أيضاً ألا يقف من الأمير موقف الواعظ المعلم يملى بالأوامر والنواهى لأنه إن فعل ذلك خرج عن كونه نديماً وأصبح ثقيل ظل مكروهاً . ومما يتصل بمهمة النديم أن يدير مجلس الشراب واللهو . وينظم مجالس الأنس ، ويعد رحلات الصيد (٢) وكلما زاد علم النديم فى شتى شئون الطبيعة والنواحى العملية والمهارات المختلفة زادت قيمته وعلت منزلته . ومن الملوك من كان يتخذ من الأطباء والمنجمين ندماء . ومما يفضل فى النديم أن يكون له خبرة سابقة فى خدمة الكبراء والعظماء حتى يكون عارفاً بالأصول ملتزماً للحدود ، متوخياً دواعى سرور الأمير (٣) . ومن نص أورده نظام الملك يتضح لنا أن الندماء فى البلاط السلجوقى كان لهم ترتيب ونظام معروف ولكل منهم منزلته ومرتبته . وقد انتقل هذا النظام بعد السلجوقيين إلى الغزنيين (٤) .

---

(١) سياست نامه : ٨٢
(٢) سياست نامه : ٨٣
(٣) نفس المصدر والصفحة
(٤) المصدر السابق : ٨٤

وكما كان النديم السامانى تشترط فيه هذه الشروط فكذلك كانت الحال بالنسبة للنديم السامانى من قبل . ويذكر المسعودى أنه لم يكن بين ندماء أردشير بن بابك من كان وضيع القدر أو خسيس الأصل (١) . ويذكر ابن البلخى فى حديثه عن اردشير بن بابك أن ندماءه كانوا من الحكماء والفضلاء(٢) وفى موضع آخر عند الكلام على شابور ذى الأكتاف يذكر أن مشيريه وندماءه وسماره كانوا من أهل العقل والفضل والذكاء والعلم بالألسنة متحلين بأدب النفس (٣) .

الشعر العربى فى بخارى (٤) :

نهض الشعر الفارسى نهضة واسعة فى عصر الدولة السامانية ، وكذلك راج الشعر العربى فى بخارى رواجاً كبيراً . وهذه النهضة لأدبية أسباب كثيرة : فالدولة السامانية مع كونها فارسية الا أنها لم تحرم الأدب العربى من العطف والرعاية وقد نالت العربية فى عهد أحمد بن اسماعيل شيئاً من مكانتها القديمة حتى صارت لغة الوثائق الرسمية . وأظهر الأمير أحمد العطف والرعاية لهؤلاء الذين يجيدون العربية . وفى ظل الدولة السامانية ظهر كثير من أدباء العربية وعلمائها ذوى الأصل الفارسى . ويكفى أن نذكر هنا محمد بن جرير الطبرى وهو من أهالى طبرستان وكتابه فى التاريخ وتفسيره معروفان . وكان معاصراً لنصر بن أحمد السامانى وتوفى سنه ٣١٠ هـ. ومنهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازى وأصله من الرى وقد ألف فى الطب كتابه الطب المنصورى وقدمه إلى منصور بن أسحق حاكم الرى . وكان هو الآخر من معاصرى نصر بن أحمد أيضاً وتوفى سنة ٣٢٠ هـ . ومنهم السلامى ، وأبو القاسم البلخى الكعبى ، وأبو زيد بن سهل البلخى وكثير غيرهم ممن ألفوا فى التاريخ والجغرافية وغيرها .

---

(١) مروج الذهب : ١٥١ ــ ١ ط بهية ١٣٤٦

(٢) فارس نامه : ٦١

(٣) نفس المصدر : ٧٢

(٤) أما الشعر الفارسى فهو موضوع آخر له بحث منفرد مطول

ومن أسباب نهضة الأدب عامة فارسيه وعربيه وجود عدد من وزراء الدولة العلماء والأدباء أمثال الجيهانى ، وقد أشرنا اليه فيما سبق . وسيرد ذكره مرة أخرى فيما بعد . أمثال البلعمى الكبير الذى وزر لنصر بن أحمد ، وابنه أبى على البلعمى الذى كان وزيراً للأمير منصور بن نوح واشتهر بترجمته الفارسية لتاريخ الطبرى .

وكان الأمراء السامانيون يعقدون المجالس الليلية للعلماء وخاصة فى شهر رمضان . ويفتتح الأمير المناقشة التى يشترك فيها من حضر من أهل العلم . كما كانوا يعقدون مجالس الأدب ويدعون اليها .

وكذلك كانت حرية القول والرأى مكفولة للجميع . ولم تكن الدولة تضيق بمهاجمة مهاجمين لها . وقد بلغ أمراء الدولة السامانية مبلغاً عجيبا فى ذلك الزمان فى التسامح وسعة الصدر مما شجع بعض الشعراء المجانين على هجاء الأمراء والوزراء والدولة كلها .

وكان لهذه النهضة مظاهر كثيرة فقد كثر عدد الشعراء ، ووفد على بخارى أهل العلم والأدب من كل مكان . وانتشرت المكتبات وأخصها بالذكر مكتبة بخارى التى تحدث عنها ابن خلكان فى ترجمة ابن سينا وذكر أنها كانت منقطعة النظير . وذكر ان ابن سينا قد استفاد منها فوائد عظيمة حتى أنها عندما احترقت بعد ذلك كان ابن سينا قد تفرد بما حصل من علومها (١)

وكانت بخارى مجمع أهل العلم والفضل يفدون اليها من أنحاء العالم الاسلامى وبها يلتقون . وكان هؤلاء الفضلاء إذا ضاقت عليهم بلادهم اتجهوا إلى بخارى فلقوا بها من الإكرام وسعة ما يجب لهم الاقامة بها . ويذكر الثعالبى فى ترجمة المأمونى أنه لما فارق وطنه بغداد اتجه فى أول الأمر إلى بلاط الصاحب بن عباد حيث أقام هناك فترة يمدح الصاحب وينعم

---

(١) ابن خلكان : ١٩١ - ١ ط مصر

بإكرامه . ولكن الخير لم تدم كما أراد الشاعر إذ سعى للوقيعة بينه وبين الصاحب بعض السعاة وأفسدوا عليه قلب الصاحب ووقعت الجفوة بينهما فاضطر المأمونى إلى الرحيل عنها إلى نيسابور ثم تركها بعد ذلك مفضلا عليها بخارى . وهناك لقى الحظوة والاكرام من كبار رجال الدولة الذين كان يخصهم بمدائحه فازداد على الأيام ماله ، وصلحت حاله (١) . ويذكر الثعالبى فى ترجمة الشجرى (٢) أنه ممن أدركتهم حرفة الأدب فرحل عن وطنه واتجه إلى بخارى وظل يقيم بها حتى انقضى عهد الدولة السامانية وبدأت الأحوال تتغير ، ولم تعد بخارى كما كانت فاضطر إلى أن يعود إلى وطنه . وفى ترجمة أبى اسحق ابراهيم بن على الفارسى من علماء اللغة والنحو يقول إنه «ورد بخارى فأجل ونجل» (٣) . ويقول فى ترجمة الواثقى (٤) إنه لما سمع ما ناله أقرانه من أولاد الخلفاء وأمثاله من التكريم والرعاية ببخارى اتجه بأهله اليها راجياً أن ينال بها ما ناله سابقوه . وكان يطمع فى أن ينال منصباً يصلح به حاله . ولكنه بعد طول اقامته ببخارى وكثرة خدمته لكبار رجالها لم ينل ما أمل فغاظه ذلك وأغضبه ودفعه إلى مغادرتها متجهاً إلى بلاد الترك .. الخ . وفى ترجمة أبى نصر الأبيوردى (٥) يبين لنا كيف كانت العلاقة بين الشعراء وكبار رجال الدولة فإن الوزير البلعمى كان يكرم الشاعر ويبادله ما يوجهه اليه من المدائح . واقترح الوزير على الشاعر يوماً أن ينظم قصيدة يحاكى بها قصائد المتقدمين فى الفحولة والجزالة ، فجاءه فى اليوم الثانى وقد أعد قصيدة فى مدحه تضارع قصائد الجاهليين فى فحولتها وجزالتها وكانت مكافأة الشاعر على هذا العمل ولاية البريد فى بلدته أبيورد .

ويقدم لنا الثعالبى صورة أخرى عن مجلس من مجالس الأدب عقده ببخارى الأمير نصر سعيد ودعا اليه أفاضل الغرباء الذين وفدوا اليها من أمثال

---

(١) يتيمة الدهر : ١٦٤ - ٤ ط محيى الدين
(٢) نفسه : ١٥٥
(٣) نفسه : ١٥٠
(٤) نفسه : ١٩٢
(٥) نفسه : ١٣٤

اللحام ، ابن مطران ، ابن أبي الشباب ، وغيرهم . ويذكر الثعالبي أنه كان مجلساً مشهوداً قلما يرى مثله (١) .

شعراء بخارى :

هناك مجموعة كبيرة من شعراء العربية ببخارى ترجم لهم الثعالبي في الجزء الرابع من اليتيمة . ونكتفي في هذا الموجز بالحديث عن بعض هؤلاء الشعراء ونبدأ باللحام .

كان اللحام من شعراء بخارى المعروفين . ويبدو من تاريخه وأشعاره أنه اتصل برجال الأمير ومدحهم ، ولكنه لم يتصل بالأمير نفسه ، وليس فيما ذكره عنه صاحب اليتيمة مايؤيد اتصاله به . عاصر الشاعر أربعة من أمراء السامانيين هم نصر بن أحمد ، نوح بن نصر ، عبد الملك الأول بن نوح ثم منصور الأول بن نوح . ويؤيد هذا هجاؤه لأبي جعفر العتبي ومحمد بن عزير اللذين وزرا لعبد الملك بن نوح . وأبي علي البلعمي الذي وزر لعبد الملك ولمنصور من بعده . وتبلغ المدة التي عاصر فيها الشاعر أمراء السامانيين هؤلاء قرابة خمسين سنة .

وقد تفقد الشاعر بعض الأعمال العامة مثل بريد ترمذ مكافأة له على مدائحه للمسئولين . ولكن الشاعر لم يكتف بالمدح وحده ليحقق أهدافه فاستخدم الهجاء كذلك . ويبدو من تاريخه وأشعاره أن الهجاء هو الفن الذي يعبر عن طبيعة الشاعر وأن مدحه كان وسيلة للنوال . وقد غلب على الشاعر الفن الذي يتفق مع طبيعته وهذا يعتبر هذا الشاعر من الهجائين رغم ما ورد له من المدائح القليلة . ويدل على هذا أنه كان يمدح الشخص ثم يهجوه كما فعل مع أبي جعفر العتبي الذي مدحه ثم هجاه . ولم يكن له مبدأ ثابت ولا خلق .

---

(١) يتيمة الدهر : ١٠١

ولم يكن الهجاء عند اللحام أسلوباً رفيعاً فى هذا الفن فقد غلبت عليه الشتائم والإسفاف . وبسبب أهاجيه عاش فقيراً . ولو اكتفى بالمدح وحده لعاش فى نعمة سابغة ولكن الهجاء كما قلنا كان طبيعته التى تدفعه ولا يستطيع الخلاص منها :

يقول اللحام فى ذم أبى جعفر العتبى :

تغيرت أخـــلاق هذا العتبى وصـــار لا يعرف غير العتب
وغير ضرب دائم وســـب وقد حشا فصـــار مثل الدب
عليه ألف لعنة من ربى

وكان قد حصل على عمل البريد فى خوارزم فأطلق لسانه فى أهلها . ومن ذلك قوله :

ما أهل خوارزم من ســلالة آدم ماهم وحق الله غير بهـــائم
أترى شبيه رءوسهم ولغـــاتهم وصفاتهم وثيابهم فى العـــالم
إن كان يقبلهم أبونـــا آدم فأنا بريء من أبينـــا آدم

وله فيهم أيضاً :

لانـــال من ربه منـــاه ولا شفـــاه ولا رعـــاه
من سامنى الكون فى بـــلاد رءوس سكـــانها جبـــاه
أغدو بـــلا مؤنس وأمسى إمســـاء من ليله ضحـــاه
لدى خسيس يظن تيهـــا أن ليس فى الورى ســـواه

وفى اللحام وولوعه بهجاء الناس يقول أبو نصر الخزيمى :

لم لا تبيع ولم لا تشترى اللحما ياشر من شتم الأحرار أو شتما
لقد صددت عن القول الجميل فما فتحت مذ كنت الا بالقبيح فما
عميت من طول ماتهجو الكراه ومن عمى الفؤاد بدا فى ناظريك عمى

ويقول أبو جعفر محمد بن العباس الوزير يصف طول لسانه وحدته :

من احتـــاج إلى الســـيف فـــا فيـــك يكفيـــك
ومـــا جـــارحـــة فيـــك لنـــا أجـــرح من فيـــك
وأطـــــراف المـــــاويك لتنبي عـــن مـــــاويك

وكان بينه وبين الشاعر ابن مطران مهاجاة ومنافسة . ويوم صرف اللحام عن بريد ترمذ تولاه ابن مطران فقال اللحام يهجوه :

قـــد صرفنـــا وكـــل من كـــان من قبلنـــا صرف
وصرفنـــــا بشـــــاعر لعنـــــه ليـــس ينصرف

ويقول الثعالبي أي أنه أحمق والأحمق لا ينصرف .

ولا نرى له ، فيما أورده الثعالبي ، سوى مدائح محدودة قليلة ، وأغلب شعره هناك في الهجاء .

ويذكرنا هذا الشاعر بشاعر آخر كان من علماء الهجاء في الشعر العربي وهو دعبل الذي لم يسلم من هجائه أحد . وكان لدعبل أغراض دعبلا بالهجاء دراسته النفسية لأحوال الناس وطبائعهم فقد وجد أن أكثر الناس ينتفع بهم عند الخوف والرهبة أكثر مما ينتفع بهم عند الأمن والرغبة وأن عيوب الناس أكثر من حسناتهم ، وأنهم جديرون من كشف عوراتهم فوق ما يبتغون من نشر محاسنهم . ويرى صاحب الأغاني أن دعبلا كثيراً ما كان ينشيء الهجاء بلا مناسبة فإذا سئل فيمن هذا الهجاء قال لا أعرف وليس له صاحب بعد . فإذا بدا له بعد ذلك أن يهجو شخصاً استخدم هذا الشعر بعد أن يضمنه اسم المهجو ، فكأنه بذلك كان يرضي صنيعته إلى الهجاء فينفق وقت فراغه في وضع أشعار الهجاء قبل أن يجد من يهجوه بهذه الأشعار .

وعاش اللحام فقيراً ، وله أبيات في الشكوى . من ذلك قوله :

قد نفدت لاعدمتك النفقة منذ ثلاث فهجئ قلقة
وليس في البيت ما يباع وما يرهن إلا دراعة خلقة

وكما عض اللحام الأيادي التي أحسنت اليه فكذلك كان يفعل دعبل حتى أنه كما يقول صاحب الأغاني كافأ الرشيد بعد موته أقبح مكافأة إذ هجاه رغم العطايا السنية التي كان يجزلها له .

وكما عاش اللحام مبغضاً من الناس فكذلك عاش دعبل شريداً طريداً وكما عذب اللحام في آخر حياته لخلعاً من شرد حتى مات فكذلك ضرب دعبل حتى مات .

• • •

ومن شعراء بخارى المطرانى :

كان ابن مطران (أو المطرانى) شاعراً مجيداً حتمته جزى الهند فيمن اجتذبت من الأدباء والشعراء . وكان المطرانى قبيح الشكل ، زرى الهيئة إلا أنه كان فصيحاً في حديثه ، مؤنساً في مجلسه ، محسناً في نثره وشعره . وكان إذ تكلم حاكى فصحاء العرب الا أن لكنة في لسانه كانت تنم عن أصله الأعجمي .

كان هو واللحام من شعراء زمن واحد ومن بلدين في بلاط واحد ، ومن ثم كانت المهاجاة بينهما متصلة لا تنقطع .

وبلغ من جودة شعر ابن مطران وذيوعه أن حمل ديوان شعره إلى الصاحب فأعجب به اعجاباً كبيراً .

وقد عاصر ابن مطران أكثر من واحد من أمراء السونة السامانية . عاصر أولا نصر بن أحمد . كما أنه عاصر عبد الملك منصور بن نوح بن نصر . وأورد الثعالبي قصيدته في مدح أبي علي البلعمي الوزير ويبدأها بذكر الشيب والتحسر على الشباب :

ألم المشيب برأسي نذيراً ... وولى الشباب بعيشي نضيراً
وأصبح ضوء صباح المشيب ... لغربان ليل شبابي مطيراً
كذاك إذا لاح نور البكور ... لسود الطيور هجرن الوكورا
هو الشيب مخبره مظلم ... وإن كان منظره مستنيراً
وقد كان إظلامه في العيو ... ن يجلو العيون ويشفي الصدورا
فاعجب بلون سواد أنار ... ولون بياض أبى أن ينيرا
كأن الغواني رمد العيون ... يطالعن من شيب فودي نوراً
إذا هن قابلن نور المشيب ... أدرن على ذلك النور نورا
وإن هن واجهن زور الخضا ... ب أعرضن عن ذلك الزور زورا
يلوناك حين يرجى الولى ... عرفنا وخشي العدو النكيرا
فلم تبك الا اختيارا نصوعاً ... ولم تك الا اضطراراً غرورا
ولم ترد الشر الا جزاء ... أراد بك الله خيرا كثيرا
ولو لم تخف سوء ظن الشكور ... لما كنت بالسوء تجزى الكفورا

وله من تشبيب قصيدة :

أخو الهوى يستطيل الليل في سهره ... والليل في طوله جار على قدره
ليل الهوى سنة في الهجر مدته ... لكنه سنة في الوصل من قصره

وله أبيات مرحة يصف فيها المودة التي تخلو من الهدايا . يقول :

والمودات ما خلت من تهاد مكدرة
كطبيخ خلا من اللحم يدعى مزورة

والمزورة مرقة المريض وطعامه ، فهي مرقة زائفة لخلوها من الدسم والدهن .

وله أيضاً من تشبيب قصيدة أخرى :

تباء أعارتها المهاحسن مشيها ... كما قد أعارتها العيون الجآذر
فمن حسن ذاك المشي جاءت فقبلت ... مواطىء من أقدامهن الضفائر

فهي ناطقة بما أصاب الشاعر من إعراض الوزير عنه . والبيت الأخير صريح في أن الوزير غير خليق بهذه الهجاء لأن الشاعر يهواه ولكن الهوى قد تلاشى لأن الوزير لم يعرف كيف يغذيه وينميه في نفس الشاعر بآثار الوزارة . وماذا تكون آثار الوزارة في نظر الشعراء الا الأموال والنعم .

هذا وقد عمر الطاهري وعاش حتى اقتربت الدولة السامانية من نهايتها ولهذا يقول في شماتة وفرحة :

أودى ملوك بني سامان وانقرضوا ... وأصبح الملك ما ينفك ينتقض
أضحت إمارتهم فيهم وجوهرهم ... عبيدهم وهم في عرضها عرض
فليبك من كان منهم باكياً أبدا ... فما لما فاتهم من ملكهم عوض
من لان مرقده فالدهر مبدله ... عنه فراشا له من تحته قضض
هاتيك عادته فيمن تقدمهم ... وكل مرتفع يوما سينخفض
دعهم إلى سقر واشرب على طرب ... فالفجر في الأفق الغربي معترض
غدا الربيع علينا والنهار به ... ممتد مبسط والليل منقبض
والنور يضحك في خضر البنان ضحى ... والبرق مبتسم والرعد مؤتمض
وقوضت دولة قد كنت أكرهها ... وزال ما كان منه الهم والمرض
ان أنت لم تصطبح أو تغتبق فتى ... الآن بادر فان اللهو مقترض

أما سر هذه العداوة للدولة السامانية فيرجع إلى أن أبا الطيب الطاهري عاصر الدولة الطاهرية ، وكان من صنائع الطاهريين . وكان له في أيامهم أملاك وضياع ضاعت منه بضياع دولتهم . وكان كل خير يقدمه اليه آل سامان يعد في نظره قليلا بالنسبة لما ضاع منه . وهذا فيما أعتقد سر نكرانه الفضل وهجائه هذه الدولة :

ومن شعر الطاهري اللطيف قوله :

خليلي لو أن هم النفو ... س دام عليها ثلاثاً قتل
ولكن شيئاً يسمى السرور ... قديماً سمعنا به ما فعل

***

وكان أبو الطيب الصعبي كاتباً وشاعراً . كان في أول الأمر صاحب ديوان رسائل الأمير نصر بن أحمد ثم وزر له . ويختلف هذا الشاعر عمن تقدمه من الشعراء الذين ذكرناهم : فهو رجل مرح خفيف الظل يحسن المعاشرة والمنادمة . وشعره يعبر عن هذا الاتجاه فهو يقول :

اختلس حظك في دنيـــــا ك من أيدي الدهـــور
واغتنم يومـــاً ترجـــــــــيه إلهو وسرور
واصنع المعـــــــــروف إن كل كفـــــور وشكور
لك ما تصنـــــع والكفـــــران يزري بالكفـــور

وله

اليـــوم يـــوم الحبور على النفـــــــام مرور
ويـــوم الـــزف قبـــل مثـــل الحمـــائل حور
ولا تكســـــاد جـــاد تـــروى بغـــير صفـــير

ويقول في علاء الحجى :

بأبي من ســـــــه الحجى وأرى حسه فصيح الكـلام

وكان الصعبي من المكثرين بعربية وفارسية . ولم يبق من شعره الفارسي سوى [illegible] في تاريخ البيهقي (١) .

• • •

وأبو علي [illegible] شاعر آخر خفيف الروح . كان كاتباً بارع الخط وشاعراً مرحاً . لم يكن فيه ما يعيبه سوى قصر قامته حتى اتخذه الشعراء هدفاً للتندر والهجاء . ومن هذا قول النحام فيه :

---

(١) تاريخ البيهقي : ٢١٢ ، عن وفيات ابن خلكان ١٣٢٤

وقصير من قرى زو زن فى قامة شبر
يدعى الكتابة إلا أنه فى فهم عير

واقتدى بالحام كثيرون غيره من الشعراء فقال المضرب البوشنجى :

للزوزنى أبى على قامة قامت بسوق هجائه المتراكم
هى عمدة الشعراء يعتمدونها بقواضب من شعرهم وصوارم
بأليتهم طالت فقصر طولها عنه طوال معايب وشتائم

ثم أبو على نفسه فكان فى شعره كثير الفكاهة . ومن شعره يهجو أبا جعفر العتبى :

يا قبيح الخبر موفور الصلف والذى قد حر فى التيه السرف
كن بخيلا وتواضع تحتمل أو سخياً يحتمل منك الصلف

ويقول فى آخر :

ان أخى تمل صوت كلامه وفؤادى يمل طول مقامه
ان عمرى وأمره لعجيب مت من بغضه وحب غلامه

• • •

ومن شعراء خارى وفضلائها أبو على الساجى . وكان من المتصلين بالبلاط . وله وصف دقيق لأولئك الذين يتصعون بالبلاط . ويترددون إلى صحبه . يقول فى بيتين :

أنت بالخضرة وقصف للمغازى والتهانى
وتشيع فلان وتغسلى قلان

وهو ممن يجيدون الفارسية . ويبدو هذا من قوله فى مدينة مرو :

بلد طيب وماء معين وثرى طيبه يفوق العبيرا
وإذا المرء قدر المسير عنه فهو يهواد بدله ان يسيرا

لفظة مرو من حيث الصياغة تشبه «مرو» الفارسية ومعناها لا تذهب ، فهي نهي عن السير . وهذا ما قصده الشاعر .

وكان أبو علي حسن الاسلام فهو يقول :

لا تأس من دنيـــا على فائت وعندك الاســـلام والعـــافية
ان فـــات شيء تســـعى له ففيهـــا من فائت كافية

ولا يمنعه هذا من المعابثة ، فهو يقول في غلام تركي :

لا سمرة لا ببـاض فيه لا سمن ولا هزال ولا طول ولا قصر
ذو قامة قام فيهـا علو عـاشقها وصورة قبحت مع حسنها الصور

• • •

وكان المرادي شاعراً آخر من شعراء البلاط السامانى في عهد نصر بن أحمد ويعد من شعراء اللغتين العربية والفارسية . ومن أشعاره في مدح نصر بن أحمد هذه الأبيات التي قالها عندما ركب نصر يوماً للضرب بالصوالجة فنزل المطر ورش الأرض ، ولما عاد من رياضته تلقاه المرادي بهذه الأبيات :

أشهـــد أن الأمـير نصرا يخدمه الغيث والسحـاب
رش تراب الطريـــق كي لا يؤذيه في الموكب التراب
لازال يبقى لـــه ثـــلاث العمـــر والملـك والشباب

ولم يقتصر المرادي على مدح الأمير نصر بن أحمد وحده . فقد مدح إلى جانبه الجيهاني وزيره كما مدح المصعبي ، وأبا علي الصاغاني .

ومن قوله في مدح أبي علي الصاغاني :

لم ألق غيرك الا ازددت معرفة بأن مثلك في الآفاق معدوم
أرى سيوفك في الأعداء ماضية ركن الضلال بها ما عشت مهدوم
يحيى الندى والردى من راحتيك فلا عاصيك ناج ولا راجيك محروم

وهى أبيات جميلة تدل على قدرة الشاعر وتمكنه حتى صار شاعر بخارى كما يقول عنه الثعالبى . ولما احتضر المرادى أنفذ اليه الجيهانى ثياباً للكفن فأفاق وأنشأ يقول :

كسانى بنوجيهان حياً وميتـــاً ... فأحييت آثاراً لهم آخر الزمن
فأول بر منهـم كســان خلعة ... وآخر بر منهم صـــار لى كفن

• • •

وهناك شاعر آخر من أسرة اشتغلت بخدمة البلاط السامانى هو أبو أحمد ابن أبى بكر الكاتب فأبوه أبو بكر تولى الكتابة للأمير اسماعيل بن أحمد والوزارة للأمير أحمد بن اسماعيل . ولهذا نشأ أبو أحمد فى بيت عز ونعمه . ولما مات أبوه رأى نفسه أحق بالوزارة من غيره . ولهذا وجد على من تولوها بعد أبيه كالجيهانى الكبير والبلعمى . ودفعه الحقد عليهما إلى هجائهما . وحاول أن يتقرب إلى الأمير ولكنه لم يستطع . فلزم منزله . وقضى فى اللهو أيامه ولياليه حتى تبدد ماله ورقت حاله . ثم أقبلت عليه الأيام بعد ذلك فتره من الزمان تولى فيها أعمال هراة وبوشنج وبادغيس ونيسابور .

ومن جيد شعره قوله :

اختر الكأس ندماناً تسر بهم ... أو لا فنادم عليها جلة الكتب
ولأنس بن ندامى سادة نجب ... منزهين عن الفحشـــاء والريب
هذا يفيدك علماً بالنجوم وذا ... يأتيك بالخبر المستظرف العجب
وبين كتب إذا غابوا فأنت لها ... فى أنزه الروض بين العلم والأدب
إذا أنست ببيت مر مقتضب ... أفضى إلى خبر يلهيك مستخب
ويحمل الأنس ساق مرهف غنج ... يسعى بياقوتة سلت من العنب
فأنت من جد ذا فى منظر أنق ... وأنت من هزل ذا فى مرتع خصب
وخير عمر الفتى عمر يعيش به ... مقسم الحال بين الجد واللعب
فحظ ذاك من علم ومن أدب ... وحظ هذا من اللذات والطرب

ولم يطل إقبال الدنيا عليه فعزل عن نيسابور وعاد إلى بخارى يعانى من فقدان المنصب ومن ضيق العيش . وكان ليأسه يرجو أن يموت ليخلص مما يعانيه من المتاعب فهو يقول :

من كان يرجو أن يعيش فإننى ... أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
فى الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا

ولما أبطأه الموت تعجله بيده فشرب السم .

دراسة للشعر العربى فى بخارى :

أوردنا فيما سبق مجموعة محدودة من النصوص . وفيما يأتى ملاحظاتنا على هذا الشعر بعد الرجوع إلى مصادره الأصلية كتيتمة .

ويجب أن ننوه أولا بتلك الحرية الفكرية التى كان يحيا فى ظلها أدباء بخارى . فقد مر بنا فيما سبق فى أكثر من موضع مظاهر هذه الحرية . ورغم تطاول الشعراء على الأمير نفسه ، وأهل بيته ، ورجال دولته فان أحداً لم يمسهم بسوء . وقد رأينا فيما مر كيف أن الأمير سعيد نصر بن أحمد بعد كل ما عرفه عن أبى الطيب الطاهرى لم يزد على أن عاتبه عتاباً رقيقاً .

أما الموضوعات فأهمها المدح والهجاء . ودواعى المدح معروفة فكل هؤلاء الشعراء كانوا يتقدمون إلى الأمير وكبار رجال الدولة أشعارهم طلباً للعنوان والمكافأة . وأكثر فنون رواجاً فى بلاط الملوك هو المديح . وقد رأينا فيما سبق كيف كان العلماء والأدباء يسارعون إلى بخارى طلباً للعطاء والجاه .

أما الهجاء فأمره فى مثل هذه البيئة طبيعى أيضاً . فالمنافسة بين الشعراء على التقرب إلى الأمراء وذوى الجاه شديدة . وكل واحد من هؤلاء الشعراء المتنافسين يريد أن يهدم غيره ليستأثر وحده باهتمام الممدوح ، وليتفرد دون غيره بعطائه . ولا شك فى أن الدسائس أيضاً كانت تعمل عملها ، فهذا يولى وهذا يعزل دون أسباب ظاهرة . وليس هناك من وسيلة فى يد المعزول

أو المحروم للانتقام سوى الهجاء . ولهذا السبب نرى اللحام مثلا يهجو ابن مطران غداة عزل من بريد ترمنتوني ابن مطران مكانه ظناً منه أن ابن مطران هو الذي سعى لعزله والقيام بعمله . وكثيراً ما كان العطاء دافعاً للمدح والثناء فاذا انقطع العطاء أو أبطأ بعد ذلك دعا انقطاعه أو إبطاؤه إلى الذم والهجاء . وهناك فريق من الشعراء لا يكف عن الهجاء الا إذا اتصل العطاء . فضلا عن اختلاف الطبائع الانسانية بين الشعراء فمنهم شاكر ومنهم كفور . أما الشاكر فيستعبده الاحسان ويبقى على المدح وأما الكفور فقلما يرضى وإذا لم يجد ما يدعوه للهجاء أنشده من غير داع أو ضرورة الدفع وراء طبيعته كما رأينا في أمر اللحام مثلا وفي الطيب الطاهري .

وكان الشعراء يحاكون الأسلوب العربي القديم في نظم القصيدة إذ يستهلونها بموضوع كالنسيب أو الشكوى أو الوصف قبل الانتقال إلى الموضوع الأساسي للقصيدة . ومن أمثلة هذه القصيدة المطرانية التي أوردناها في سبق فانه بدأها بذكر الشيب وما عقده من صفقة الصحة والتحسر على شرائه قبل المدح الذي هو موضوع القصيدة الأساسي . ولا شك في أن هذه المقدمة كانت تهدف إلى غرض في نفس الشاعر .

ومن الموضوعات الشائعة في هذا الشعر الخون . ولم يكن في أغلبه مهذباً رقيقاً إذ انتشر فيه ذكر العورات والتعبير عن الأغراض الجنسية تعبيراً مكشوفاً بلا حياء . وقلما رأينا شاعراً سمى شعره من ذلك . ولم نستطع فيما سبق من النصوص أن نمثل لهذا الجانب ويكفي الاطلاع على مصدر قديم جمع هذه الأشعار كاليازجة . وإلى جانب التعبر الطبيعي بالمرأة كان الغزل بالمذكر شيئاً عادياً في تلك الأشعار .

وأحسب أن شيوع هذا الانحلال الخلقي أمر طبيعي في بيئة كبيئة بحرى . فهي أولا بيئة نهرية تحفها المياه و لأنهار من كل جانب . ومن طبيعة البلاد التي تقع على الشواطىء أن تكون أكثر تعرضاً للدواعي الانحلال . وفي هذا المعنى نفسه يقول المقدسي «وكل بلد على بحر أو نهر فالزنا واللوطة فيه

كثير مثل سيراف وبخارى» (١) . يضاف إلى هذا أن المدينة بحكم أهميتها التجارية وموقعها الجغرافى ، ومكانتها السياسية كانت مقصد الناس من جميع الأجناس ولهذا كان أهلها أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وألوان التفكير ، وطرائق الحياة. ويذكر المقدسى أن كثيراً من أهل الفساد بالأقاليم المختلفة قد رحلوا اليها وأقاموا بها (٢) .

وعرف عن بخارى ازدحامها بأهلها مما أدى إلى ضيق بيوتها وتلاصق مساكنها. واشتباك مبانيها . وهذا بدوره يهيىء الجو المناسب للفساد والمفسدين.

وكانت بخارى بلدة تجارية عظيمة ، كما كانت بساتينها وحقولها غنية بالثمار وافرة المحاصيل ، وفواكهها مشهورة فى المشرق . وهذا كله انتشر ثراء بين أهلها فانغمسوا فى الترف والدعة . وظهر منهم قوم لبسوا الحرير والديباج وشربوا فى أوانى الذهب والفضة ودونوا أمور المغنين (٣) .

وكان طبيعياً أن يتأثر الأدب ، وهو مرآة البيئة ، بكل ما حوله . ومن مظاهر الغنى والاهتمام بالترف ما قاله أحد الشعراء فى استهداء الشراب :

عندى رسولى ومسولى ... من هواه قد سال بلوائى
وقد رانى أن بيتى ... وكان ما قد رآه من رائى
وليس عندى من الشراب له ... وحق ما بينا سوى الماء

ويقول الصورى فى نفس الموضوع مخمساً بيتاً لعبد الله بن طاهر :

ما عشت الدنيا بأطرف من ...

ألا إن دنياك معشوقة ... تجمشها كل عيش لذيذ
ولكنها قط ما جمشت ... من المهيبات مثل النبيذ

(١) المقدسى ٣٦
(٢) المقدسى ٢٨٠
(٣) نفسه ٢٨٠

وفى السكر وحرصهم عليه يقول الشاعر :

وقائلة لى ما بالك الدهر طافحاً ... وأنت من لا يليق بك السكر
فقلت لها أفكرت فى الخمر مرة ... فأسكرنى ذاك التوهم والفكر

ويقول أيضاً :

وسائل عن مقتضى سكرى ... وما درى لم هكذا صرت
قلت له استنشقت من منتش ... رائحة الخمر فأسكرت

وكان لطبيعة الاقليم مظهرها فى شعره . والمطرانى فى بعض أبياته يتحدث عن ثلوج نزلت بالبلاد بعد النوروز فأضرت بالأنوار والزرع :

عجباً لآذر جاء فى آذار ... وتفاوت الأفلاك فى الأدوار
طلعت عشاء للبيات تحائب ... أنوارهن خسفن بالأنوار
أبدى الربيع لنا شتاء مضمراً ... يأبى ظهور ضمائر الأشجار
ندم الشتاء على التقضى فانثنى ... لينال منتقما بقايا الثار

ومن وصف الطبيعة أيضاً قول أبى نصر الهزيمى فى شتاء شديد :

وشتوة شت أبناء السبيل لها ... وغار فى نفق منها المغاوير
يشكو جليدهم من الجليد ضحى ... والماء جلدته قرا قوارير
فاللحى من لحاء البرد أغشية ... واللعبون من الشفاف تغوير
إذا تنكبت الأكباء عن أذن ... فالجنوب من الجنبين تقوير

وقال أبو القاسم الدينورى فى سفرجل وتفاح ورمان وآذريون أهداها إلى بعض الرؤساء فى يوم المهرجان كما جرت العادة بذلك :

بعثت اليك ضحى المهرجان ... بمعشوقة العرف والمنظر
معطرة صانها فى الحجال ... مطارف من سندس أخضر

إلى آخر هذه القصيدة التى أوردها الثعالبى فى ترجمة الشاعر .

وكان من الشائع بين شعراء العربية فى هذه البلاد نقل المعانى من الفارسية إلى العربية واقتباس المعانى من الشعر العربى . ومن أمثلة هذا قول الشجرى :

ان شئت تعلم فى الآداب منزلتى وأننى قد عدانى العز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى والعود والنرد والشطرنج والقلم

ويقول الثعالبى أن هذين البيتين منقولان عن بيتين بخارسية للأعاجم . وأعتقد أنه يقصد هذين البيتين للشاعر الفارسى آغاجى بخارى وفيهما يقول :

اى آنكه ندارى خبرى أزهنر من
خواهى كه بدانى كه نيم نعمت پرورد
آسب آر وكمند آر وكتاب آر وكمان آر
شعر وقلم وبربط وشطرنج وى ونرد

ومعناه بالعربى : ان كنت لا تدرى حقيقة فضلى فاعلم أنى رجل لم تفسده النعمة . فهيىء للفرس واللوهق . وأحضر الكتاب والكمان والشعر والقلم والعود والشطرنج والطنبور والنرد . أى أنه رجل يجد حين الجد ويلهو فى غير ذلك .

والحقيقة أن هذه الأبيات فارسية هى بذورها مأخوذة من قول المتنبى :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والضرب والقرطاس والقلم

ولأبى الحسن أحمد بن المؤمل بيتين من الشعر :

تصور لذيذ العيش حيث حللت لأنى فى أثر ما تبصر
لعمرك خير ما اتخذ الورقا من العيش خير ما به تعبر

أخذ أوحد من قول الرودكى .

بچشم دلت دوست بنمايد جهان كه چشم سر تو بيند نهان

ومعناه : يجب أن ترى الدنيا بعين قلبك لأن عينك لا ترى خفى .

ومن المعانى العربية التى أخذوها قول الدينورى فى ابنه :

ربيته وهو فرخ لا نهوض له ... ولا شكير ولا ريش يواريه
حتى إذا ارتاش واشتدت قوادمه ... وقد رأى أنه آنت خوافيه
مد الجناحين مداً ثم هزهما ... وطار عنى فقلبى فيه ما فيه
وقد تيقنت أنى لو بكيت دماً ... لم يرث لى فهو فظ القلب قاسيه

والاهتمام بالمحسنات البديعية ظاهرة أدبية غالبة على شعراء المشرق . ويرجع تعليل هذه الظاهرة ، فيما يبدو لى ، إلى عجمة أصولهم . والأعجمى إذا أجاد اللغة العربية لا يتصور أن البساطة فى التعبير غاية فنية . ولهذا فهو يعمد إلى فنون الصناعة الأدبية المختلفة ليثبت أنه محيط باللغة ، بارع فى التصرف بألفاظها . ويكثر الاتجاه إلى استخدام هذا الأسلوب فى البيئات التى يغلب فيها الأعاجم أو فى عصور الضعف . وينسى هؤلاء الأعاجم أن بساطة التعبير وسهولته مطلب بلاغى قد يصعب بلوغه على كثير من العرب أنفسهم . ويلاحظ ، دائماً أن الدخيل على لغة من اللغات عندما يجيدها ، يهتم بالفخم من اللفظ والغريب من الفكرة ، ووسائل الصنعة ، وطرائق الزخرف ، ويتوهم بذلك أن هذه مظاهر قدرته ومهارته بينما نرى أن أهل اللغة نفسها الذين يمتلكون ناصيتها يهتمون بالبساطة والوضوح ولا يسيطر عليهم عقدة العجمة ولا الرغبة فى التفاصح . ومن أمثلة الاهتمام بهذه الصناعات الأدبية قول ابن عمران وكان حريصاً على التجنيس حرصاً أفسد شعره :

مضى رمضان مرهف الذنب فقده
وأقبل شوال تشول به قهراً
فيالك شهراً أشهر الله قدره
لقد شهرت فيه سيوف العدا شهرا

وقوله :

السحر من مقلتيك ينتثر ... والخمر من وجنتيك يعتصر
ياشادنا سخر الجمال له ... فكل أفكارنا له سخر
الريق والطرف منك ياسكنى ... ضدان ذا سكر وذا سكر

ويذكر الثعالبي لأبي أحمد بن أبي بكر الكاتب أنه عندما هجا الجيهاني والبلعمي خرج مغاضباً إلى بغداد ثم حن بعد ذلك إلى وطنه بخارى فلما بلغ في طريق عودته قرية آمل قال :

قطعت من آمل المفـــــازة قطعاً بـه آمـل المفـــازة

ومن الأمثلة الواضحة على هذه الصناعة قول أبي جعفر محمد بن العباس الوزير في هجاء اللحام :

من احتـــــاج إلى الســـيف فمـــا فيـــك يكفيـــك
ومـــا جـــارحه فيـــك لنـــا أجـــرح مـــن فيـك
وأطـــراف المـــــاويك لتنبي عـــن مـــــاويك

وقول المطراني :

ترمـــي مكايدة العدو بمـــا تحفظ منـــه ضـــائع
من واقعـــات بالمقـــ تل قـــــاتلات بالمواقع

وله أيضاً :

تزهى علينا بقوس حـــاجبها زهو تميم بقـــوس حـــاجبها

ومن هذا أيضاً قصيدة أبي جعفر محمد بن عيسى بن الحسن :

لئن أصبحـــــت منبوذاً بأطـــراف خـــراســـان
وجفـــوا نبـــت عـــن نسـقة بعمـــان أجفـــــاني
وحمـــــلوا عـــلى نصعبـــــة مـــن بعرض سبضـــاني
وخصـــوصـــا خراســـان مـــن الأخبـــار أخبـــاني
وصرف عنـــه شكســـبـــواي مـــــــن لأذن آذاني

....

كأن القصـــــيد مـــن أحمـــد ث أزمـــــانى برمـــــاني

وبقية القصيدة زاخرة بألوان الجناس .

والأفضال . ولم يستطع الأمراء الخوارزميون أن يدافعوا عن المدينة وهزمو فى الهجمة الليلية التى شنوها على جيوش المغول المرابطة حولها . وعند ذاك أدرك أهل المدينة أن لا قبل لهم بالمقاومة ، فأسرع السادة والعلماء والأشراف والأعيان إلى الخان يعلنون خضوعهم ويطلبون الأمان. وأجابهم جنكيزخان إلى طلبهم ، ودخل فى نفس الوقت مدينتهم . ولما بلغ المسجد الجامع ظنه قصر السلطان فأفهموه أنه بيت الله ، ولكنه لم يرع له حرمة ودخله راكباً حتى بلغ المقصورة فترجل وصعد المنبر وانتشر رجاله يفتحون الصناديق وينقون بالمصاحف على الأرض ، وجعلوا المسجد اصطبلا . وبالغوا فى اذلال أهل العلم والمشايخ فتركوا لهم زمام الدواب وشغلوا بشرب الخمر واللهو والغناء. وبعد ذلك ذهب جنكيزخان إلى ساحة صلاة العيد (عيد گاه) واجتمع بالأهلين وبدأ الكلام بذم السلطان محمد خوارزمشاه والطعن عليه. ووبخهم وأغلظ القول لهم ثم طلب منهم أن يسلموه ما يخفونه عندهم من الأموال والكنوز. وأسرع الأهلون إلى الامتثال وقدموا له ما تملكون . وفى نظير ذلك أعفاهم جنكيزخان من التعذيب ، ولكنه علم أن كثيراً من أتباع خوارزمشاه يختفون بين الأهالى فثارت ثائرته وأمر باشعال النار فى منازل البخاريين . وكانت أغلب بيوتهم من خشب فما انقضى اليوم حتى كانت المدينة قد احترقت وأصبحت طعمة للنيران ولم يسلم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وبعد ذلك أمر جنكيزخان شبان بخارى بالهجوم على قلعتها ورتبت المناجيق من الجانبين . وفى قليل من الوقت استولى المغول على ذلك الحصن الحصين . وقتلوا كل من كان بها من الرجال وأسروا الأطفال وسووا القلعة بالأرض. وبعد هذه الواقعة كان أحد أبناء بخارى قد رحل إلى خراسان فسئل عن تلك الواقعة فأجاب فى عبارة موجزة : انهم جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وسلبوا . ويعلق صاحب حبيب السير على هذه العبارة فيقول : فى الواقع لا يمكن أن توجد عبارة فى الفارسية أوجز من هذه (١) فى بيان ما وقع فى بخارى من جيش المغول .

(١) ص العبارة بالفارسية «آمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردند»

ولأبي القاسم الدينوري في البراغيث :

وخشن القوائم حدب الظهور ... طرقن فراشي على غرة
فقطني بخراطيمهن ... كنقط المصاحف بالحمرة

ويمثل شعر أبي طالب المأموني مظاهر النعمة والترف التي كان ينعم بها في بخارى . وهي في شعره بوصف أطايب الطعام وأنواع الحلوى ونحو ذلك عناية لا نجدها عند شعراء غيره . وهو مثلا في ترغيب المعسل في بولية رجراج

وشمدانة مثل القسيم كأنها ... مكوية لأجرام من ريق نقطر
بها من نبات النحل والنحل دونه ... بوقيت خمر في مياه من الثلج

وله في الطبيخ :

تمزج فيه بوب صب وخلنج ... كما حوى وبين ثوب سنه
والسكبج مسكية حامضة ... ما بوب دوج وعرف منه
يا لعب لكن حلت ... وبه المعصل فهي بدر تمه

وقوله في الكمثرى :

وضرب من ثمر شريف يجلى ... وقد صار منه حمه
فدبسلا تضيء طيبة ويسمى ... حزوم

وله في الشواء :

طرا طارىء عند العشاء فجئته ... بقرص عضيض من شواء ابن زادور
فجال قطاع المسك رصع رصعه ... بفيروزج تقطع في صحن كافور

وله في اللوزينج :

واللوزينج يعزى إلى الفرس خلته ... بنان عروس في رقاق المعلاق
فإن حملت احداه خمس حسبتها ... زيادة كف بين خمس أنامل

وهناك غير هذا كثير تجده فى ترجمته فى الجزء الرابع من اليتيمة فقد قال فى الأترج المرى (١٧٦) وفى بنادق القند (١٧٨) والأهليج المرى (١٧٧) والزبيب (١٧٩) والبقلاء (١٨٠) والرقاق (١٨٢) والجوذابه (١٨٣) والسفود (١٨٣) ومشاش الخليفة (١٨٥) والمزورة (١٨٦) . كما قال فى أشياء أخرى كثيرة يستصغرها الشعراء ولا يقولون فيها كقوله فى المحبرة (١٨٨) والمقلمة (١٨٨) والسكين (١٨٨) والمقط (١٨٨) والمشط (١٨٩) والمنقاش (١٨٩) .. الخ .

وبالاضافة إلى ما سبق نظم الشاعر مجموعة من الأشعار على ألسنة كثير من الأدوات فمن ذلك قوله على لسان خوان :

فضلت جميع الأوانى وقمت ... فما فى منقصة واحدة
مقرى منازل صيد الملوك ... وفى أنت سورة المائدة

وله أيضاً على لسان دار :

حكم الخلائف آبائى على الأمم ... حكم تضيوف بهذا الربع أنفذ من
فلا ذمام له الا على الحرم ... فكل ما فيه مبذول لضرته

... الخ

بخارى بعد السامانيين :

وبانقضاء دولة السامانيين ينقضى عصر بخارى الزاهر ، وتحتفظ بخارى بمكانتها فترة من الزمن تأخذ بعدها فى الضعف التدريجى حتى تأتيها الضربة القاضية فى مطلع القرن السابع فتجرى على يد المغول إذ نالها فى ذلك الوقت مانال غيرها من مدن العالم الاسلامى من التخريب على يد هؤلاء المتوحشين .

عندما فرغ جنكيزخان من السيطرة على المشرق أصبحت حدود دولته متاخمة لحدود مملكة خوارزميين . وكان من المتوقع أن يحدث الاحتكاك بين القوتين . وقد تعجل ملك خوارزم وقوع هذا الاحتكاك بقتل رسل جنكيزخان اليه . وكان ذلك خطأ كبيراً منه عجل بوقوع الكارثة ، وإن لم يكن فى الحقيقة سبباً لأن أطماع المغول لم تكن لتقف حيث بلغت .

وفى عهد الشيبانيين ٩٠٦ ــ ١٠٠٧ هـ = ١٥٠٠ ــ ١٥٩٩ كانت سمرقند هى العاصمة ولكن كان هناك أيضاً فرع من الأسرة يحكم فى بخارى . وكثيراً ما كان حاكم بخارى هو الحاكم لا قليم ما وراء النهر . وهكذا نافست بخارى سمرقند فى عهد هؤلاء الشيبانيين . وينسب هؤلاء الشيبانيون إلى محمد الشيبانى من سلالة جنكيزخان وأصلهم من سيبريا ثم هاجرت بعض القبائل كالأوزبك إلى ماوراء النهر بزعامة محمد الشيبانى وكونوا بذلك الدولة الاوزبكية التى حكمت ما وراء النهر خلال القرن السادس عشر الميلادى .

وفى عهد أسرة سترخان أى الأسرة الجانية Janids (١) ١٠٠٧ ــ ١٢٠٠ = ١٥٩٩ ــ ١١٨٥ استعادت بخارى جانباً من مكانتها القديمة وازدادت ثروتها وأصبحت من جديد منارا يضيء وسط آسيا . ولم يمنع هذا من وجود منافسة من مثل سمرقند ، فرغانه ، بدخشان ، بلخ .

وبدأت هذه الأسرة تضمحل بعد أن انتهى أمرها على يد قوة أخرى جديدة كانت قد بدأت تظهر فى خجند (فرغانة) منذ سنة ١٧٠٠ م . وهذه القوة الجديدة هى قبيلة منجيت التى تولت السلطة سنة ١٧٨٥ م .

وكانت هذه القبيلة قد رحلت عن موطنها الأصلى اقتداء بما فعل محمد الشيبانى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى . وقد بدأ نفوذهم فى ظل أسرة استرخان (الجانية) السابقة . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وزر وعمالهم لحكام بخارى ثم استطاعوا فيما بعد أن يسلبوهم السلطة .

وقد ارتفع شأن بخارى فى عهد أحد أمراء هذه الأسرة وهو الأمير المعصوم . (معصوم شاه مراد ١٢٠٠ ــ ١٢١٥هـ = ١٧٨٥ ــ ١٨٠٠م). وقد عرف عن هذا الأمير حبه وتدينه واشتغاله بالأمور النافعة . ومن أمراء هذه الأسرة الأمير نصر الله . وكان ظالماً مستبداً قاسياً .ولم تكن الامارة

---

(١) Lane - Poole : Mohamedan Dynasties p. 274.

مقررة له فهو الابن الثالث للأمير حيدر ، ولهذا ظل فى نزاع مع أخويه حتى استطاع بالحيلة وبالحرب أن يصل فى آخر الأمر إلى الولاية ، وهاجم أخاه عمر فى بخارى ودخلها ظافراً فى ٢٢ مارس سنة ١٨٢٦ ، وأسرع عمر إلى الفرار فنجا بنفسه بينما هلك ثلاثة من أخوته مع من بقى معهم فى بخارى من الأتباع . وعندما استتب له الأمر لم يكن يقيم وزناً لأى اعتبار من الاعتبارات مادام يؤدى إلى تحقيق هدفه . ولم يتورع عن قتل أصدقائه وأعوانه الذين مهدوا له الأمر . وبالجملة فقد كان سفاكاً شريراً . ولهذا لقبه Ross, Skrine فى الفصل الذى عقداه عنه فى كتابهما بلقب نيرون بخارى (١) .

وعندما أحس نصر الله من جيرانه الضعف بسط نفوذه على ممتلكاتهم وحقق أطماعه . وكان يتخذ من تيمور لنك قدوة ومثلا .

وفى عهده بدأت أنظار انجلترا تتجه إلى المنطقة لتراقب المحاولات التى كانت روسيا تبذلها للتسلل إلى المنطقة . ففى سنة ١٨٣٢ أرسلت انجلترا الكسندر برنز Alexander Burnes فى مهمة سرية إلى بخارى . ولم يعجز برنز هذا شيئاً مما عهد به اليه . وكان من حسن حظه أن استطاع أن يفلت من وحشية ذلك الحاكم المتعطش للدماء .

وحاولت بريطانيا مرة أخرى . وكان رسولها فى هذه المرة الكولونيل Stoddart من رجال الجيش بالهند . ولم يكن هذا الرسول على شىء من الكفاءة والدبلوماسية . وبدا من عجرفته ما أوغر صدر نصر الله عليه فألقى به فى السجن يقاسى ألوان العذاب حتى توفى هناك .

---

(١) ص ٢١١ من كتابهما Heart of Asia . والمؤلفان فى هذا الفصل مايدل على تعصبهما ضد الاسلام . ويبدو أن مصدر هذا التعصب مافطه نصر الله بعض مواطنيها من الانجليز كما ورد فى هذا الفصل . ولكن تعميم الأحكام من حوادث فردية أمر لايتسم بطابع العلم ولايتفق مع مناهج البحث .

وفى سنة ١٨٤٠ أوفدت بريطانيا رسولا ثالثاً هو الكابتن أرثر كونولى Arthur Conolly وكان رجلا رقيق الحاشية واسع الثقافة . وقد باعدت هذه الصفات بينه وبين ذلك الحاكم الطاغية نصر الله . وكانت مهمة هذا الكولونيل هى انشاء اتحاد بين أمراء وسط آسيا لمواجهة مطامع روسيا فى هذا المنطقة . ولم ينجح هذا الكولونيل فى تحقيق هذه المهمة بسبب الأحقاد والمنازعات القائمة بين أولئك الأمراء التى تجعل اتحادهم فيما بينهم أمراً عسيراً . وانتهى أمر هذا الرسول إلى الأسر .

وفى هذا الوقت نفسه كانت روسيا تسابق بريطانيا إلى كسب ود نصر الله فأوفدت اليه فى سنة ١٨٤٠ المستر بتليف Batanieff ليعقد معه فى بخارى معاهدة صداقة وتجارة . وكان غايتها أثرها فى نفس نصر الله . ومع ذلك لم ينجح فى مهمته وغادر بخارى فى ١٨٤١ .

وعندما امتدت حدود روسيا من الشاطىء الشمالى الشرقى لبحر قزوين إلى حدود الصين أصبحت تشاطر حدود هضبة سمرقند ومن ثم اقليم بخارى . وهنا بدأ الخانات يدركون حقيقة الخطر الروسى الذى أصبح على الأبواب فقرروا نسيان ما بينهم من أحقاد وتم الخوقنديون Ko anids والبخاريون Bokharans وأمراء خيوة Khivans . وكانت الشكنة بعد ذلك أن يجدوا زعيماً لهذا الاتحاد . وقد وجدوه فى شخص أمير بخارى سيد مظفر الدين ١٢١٧ - ١٢٦٤ = ١٨٠٢ — ١٨٦٠ . وكان هذا الأمير سليل تيمورلنك ولهذا كان يحلم بمجد كمجده . وسرعان ما استطاع هذا الأمير أن يجند جيشاً ضخم من أتباعه . وعندما بدأ القتال كان الجيش الروسى بقيادة شرنائيف Chernaieff . ومع أنه كان مجهزاً تجهيزاً حديثاً ضخما الا أنه فشل فى محاربة البخاريين بسبب العداوة التى لقيها من الأهالى وصعوبة التموين . ولذا اضطر أن يتراجع إلى عاصمته . وكان تراجع القائد الروسى مظهراً للضعف أمام الأهالى الذين تقاطروا للانضواء تحت راية الأمير البخارى الذى زحف إلى طشقند .

وجاء الجيش الروسى الثانى بقيادة الجنرال رومانوفسكى الذى لم يستطع هو الآخر أن ينتصر على الأعداء فى أول الأمر واضطر إلى التراجع عن مدينة طشقند إلا أنه عاود بعد ذلك الهجوم وهزم الجيش البخارى . وتراجعت الجيوش البخارية فى فلول غير منظمة . ورأى الروس أن يستولوا أولا على قلعة خجند لتأمين طريقهم وفى ٦ يونيو سنة ١٨٦٦ سقطت خجند بعد حصار دام ثمانية أيام . وكان لسقوط خجند دوى واسع المدى فى أنحاء آسيا الوسطى . ولكن مظفر الدين الذى كان يحرضه رجال الدين على مواصلة القتال رأى أن يقوم بجولة جديدة ضد الروس . وفى اكتوبر كان الروس قد بلغوا مشارف بخارى وبذلك استطاعوا أن يسيطروا سيطرة كاملة على وادى زرفشان . وفى ربيع سنة ١٨٦٧ استولى الروس على بنى كرجان . وهكذا وجدوا أنفسهم سادة للأقليم الذى يضم منبع بخارى وهى حوض نهر زرفشان وسيحون .

وفى ١٢ مايو سنة ١٨٦٨ هاجم القائد الروسى كوفمان Kaufman القوات البخارية الخوارزمية المتحدة على المرتفعات الواقعة فى الجانب الغربى من نهر زرفشان على بعد خمسة عشر ميلا من تعصمة . وعبر الروس النهر فضحل وأطبقوا على عدوهم . وفى اليوم التالى حاصروا مدينة سمرقند ثم تركوها بعد عدد من المناوشات إلى بخارى نفسها . وبالسيطرة على بخارى أصبحت لروسيا السيادة فى تلك المناطق .